فلسفة

التربية والادب

وهي مجموعة أدب وتهذيب

للكاتب القدير المرحوم

احمد افندي فارس الشدياق

« صاحب ومحرر جريدة الجوائب »

التي كانت تطبع في الاستانة

oberkandl.com

احمد فارس الشدياق

(كاتب قدير وفيلسوف نحرير قبض على زمام الحكمة فملكها وشرح بيانها فأحكمها وصعد بقوة عقله الى أعلا ما يصل اليه عقل بشري فأحكم نظره في الاخلاق فكتب بقلمه السيال شارحاً داءها ودواءها فاعجبتني سلاسة اسلوبه ولطافة مطلوبه فأقدمت على طبع ما طُبع عليه الرجل من مكارم الاخلاق وتهذيبها نظراً لما له من اصابة المرمى في الحقيقة فعسى يحوز مستحسني لدى ارباب العقول كما هو المأمول)

علي محمود
الحطاب

جمل ادبية

« غرور الادعياء »

من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره فتراه ابداً حريصاً على جمع فرائده وايضاح منهجه وتسهيل وعره فاجل امنيته عنده ان يفهم القول كما عناه قائله وان يفيده غيره كما فهمه فمثله كمثل الكريم الذي يستفيد ويفيد وفي الحقيقة فان الكرم كما يكون في افادة المال كذلك يكون في افادة العلم فالكريم من العلماء يفرح لسؤال الطالب ولا يمل من السائلين واذا اجاب عن شيء او الف شيئاً جعل اقصى همه وعنايته

في توضيح عباراته وتصريحها حتى لا تكون معلنة
للتأويل والقال والقيل فهولاء الذين ينفع الله تعالى
الناس بعلمهم وعملهم وهولاء الذين بعد وفاتهم يتخرج
عليهم كثيرون من الطلبة كما كانوا في حال حياتهم
فلا يزال كلامهم نوراً يضيء على الناس ولا تزال
بركة مساعيهم ومقاصدهم نامية الفوائد ومنهم من يتعلم
العلم لينفع به نفسه دون غيره الا ان ذلك النفع الذي
استأثر به يعود بالضرر عليه كمن يتعلم الفقه مثلاً ليصير
به عوناً لواحد على آخر فيبذل جهده والحالة هذه في
ان يصير الحق باطلاً والباطل حقاً وما ذلك الا ليكسب
بعض دراهم ينفقها في رياشه واثاثه يزعم ان الاكثار
من الرياش والاثاث يكسبه المهابة في عيون الناس فاذا

قصده غريم مثلاً ورآه على هيئة الفني عظم في عينه
واجزل له العطاء لان الناس في الغالب يراعون
الظاهر دون الباطن فيكون قد اتخذ العلم سبباً للاكثار
والتشبع والاكثار والتشبع سبباً للجشع فيضل عن طريق
العلم ويتيه في مهامه التكسب والاقتناء واذا سأله
احد الطلبة عن شيء تعاظم عليه وازدرى بسؤاله واخذ
يشكو من قلة فهم الطلبة في القاء السؤال وتلقي الجواب
فاذا اجاب عن شيء ليس في القول ووارب حتى يزيد
السائل حيرة وارتباكاً فاذا انصرف السائل من عنده
على هذا الوجه قال انه لم يبق من اهل عصره من
يفهم كلامه بل العلماء ايضاً تقصر عن ادراك معانيه
وتلك مزية فضله الله تعالى بها على جميع الناس اذ

بجعل اقواله اعلى من اذهانهم وليست عبارته فيما يكتب
باقل ابهاماً وتلبيساً مما يقول وهو داء فاش في كثير
من المصنفين الذين يقصدون من التصنيف اظهار علمهم
ودقة افكارهم وتصوراتهم لا افادة الطلبة واذا مدح
بحضرته احد على علمه وفضيلته امتعض وامتعض فلا
يريد ان يكون احد من الخلق شريكاً له في العلم بل
يتمنى ايضاً من مدح غيره على علم شيء من اللغات
الاجنبية فاذا قيل له ان فلاناً على امامته بالعربية
يعرف اليونانية قال وانا ايضاً اعرفها (تيكاني ايلادو
قالون) واذا قيل له فلان يعرف الفارسية قال (دوستت
برادر خوش) الا ان الله تبارك وتعالى قد فضلني منذ
الصبي على اهل العصر فكنت اقرىء الناس وانا ابن

خمس عشرة سنة وصرت احكم وافتي وانا ابن عشرين
سنة فدانت لي الامراء واقبلت عليّ العلماء فما منهم
الا من اخذ عني او استملاني او استجازني او سألني
فشرحت واملیت واجزت واجبت وبكل احسنت
واصبت ومع ذلك فاني غير معجب بنفسي ولا شامخ
باني كما يفعله كثير من العلماء الا ترى اني لا استنكف
من مجالسة الناس ولا آنف من ان اصحح لهم كتبهم
اي كتب كانت وما ذلك الا عن كرم وحب للخير
فاني مجبول عليهما اذ لو كنت ممن يطلبون الغنى الملكت
الدنيا بحذافيرها ويا طالما انفقت وجمعت وفرقت واقتنيت
وبذلت وادخرت وافضلت واست ممن يحرص على
قطع ارزاق الناس واظهار معائبهم وانما حبب اليّ الحق

ونفع الناس وذلك يضطرني الى ان اقول ان فلاناً مراء في الدين فيجب قطع معاشه وان فلاناً غير جدير بوظيفته فيجب عزله وان فلاناً اعترض عليّ في امر كنت فيه على الحق وكان هو على الباطل فيجب قطع لسانه وهلمّ جرًّا الى ان يبدو لجميع الناس ان علمه شرك للاذى والشر ووسيلة للضلال والهتر فلا يسعهم بعد ذلك الا اقصاءه ورذله واهانته وخذلانه فيصبح بينهم ذميماً مدحوراً داحراً مبتوراً فهذا مثل العالم الذي يقصد بعلمه نفع نفسه وضر غيره والله يهدي من يشاء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات

جيدة فيزداد هدى ورشداً وورعاً ومتانة اخلاق
وحسن تصرف واستقامة طبع ونزاهة نفس وصفاء
عقيدة واخلاص مودة وسلامة نية وعفة قلب ولسان
وانبساط يد فمثله كمثل الجوهر الشفاف اذا قابله شعاع
الشمس او كمثل اناء من زجاج نظيف صاف اذا وضع
فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً فتراه دائماً مقبلاً على
نفع الناس ساعياً في اصلاح شؤونهم وتسنية احوالهم
باذلاً اقصى جهده في تسكين خواطرهم ولم شعثهم
وتاليف متفرقهم وتسلية حزينهم وارشاد غاويهم وتأييد
خصيمهم وليس من همه التردد على ابواب الامراء
والخضوع لحجابهم وملاينة خدمتهم ولا استعطاف ذوي
الثروة والعز حتى ينال منهم وظيفة او رزقاً ولا التشدق

بالابيات والنوادر حتى يعجب السامعين ويحملهم على
اكرامه وتعظيمه ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال
فيه انه ذو همة وسعي وانما همه كله في مراعاة ما
يقتضيه العلم وهو فعل الخير لوجه الله تعالى فهذا هو
العالم الذي يحمد حياً وميتاً ويبقى اسمه مذكوراً بالخير
في كل مكان وزمان وهو الذي تتبرك الناس بنقل
اقواله كما يرتاحون لحمد افعاله وكلما ذكرت سجية حسنة
وخلة مستحسنة ذكروه بها ونسبوا اليه كثيراً من امثالها
فان من طبع الناس ان ينسبوا الى من عرف بالمحامد
والفضائل في عصره كل حمد وفضل عرفاً لغيره ومنهم
من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهذب
به بعض التهذب ويتغير بعض التغير فشأنه ان يبقى

فيه علمه وشرّه كالقرنين المتكافئين فمرة يقوى علمه على
شره وذلك اذا تذكر ما مرّ به من قصص الصالحين
وسيرة اهل العلم والخير فيؤثر الاقتداء بهم ومرة
يقوى شره على علمه اذ يطمس الله على قلبه فينسى
ما قرأه وسمعه ويتبع هواه فمثله كمثل الشمس في
شهر الغيم تبدو مرة وتختفي اخرى وهذه الحالة هي
التي تحير الناس في وصفه فترى بعضهم يمدحونه كل
المدح وبعضهم يذمونه كل الذم وكل في نفس الامر
صادق الا ان المادة ان خلة واحدة مستهجنة تمحو
خلالاً كثيرة مستحسنة فكأي من محسن بخيل طمى
الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسناته كلها
في اعين المتقنين عليه سيئات ومنهم من يتعلمه وهو

على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشاً ونزعاً
الى الشر واضطراباً في الراي وحدة في الطبع وشراسة
في المعاملة وتطاولاً على حقوق الناس وتهافتاً على الطعن
فيهم فمثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح
فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة ويسرة حتى يتمنى الناظر
اليها اطفاءها بالمرة ثم ان كل علم نافع وكل نافع ممدوح
الا انه ينبغي النظر في حقيقة معنى النافع فان من
يقصد العلم لينفع به نفسه دون غيره لم يبق ذلك
النفع الخاص مستوجباً للمدح التام وكيفية اقتصار
الانسان على نفع نفسه هو ان يزدري بغيره حتى
يصير مرجع المسائل اليه وان يستحل اموال الناس
بما تسول اليه وساوس نفسه من انهم لم يحرزوها على

وجه الحق وان يتهددهم باظهار عيوبهم في الاماكن
التي يتنابها حتى ينيلوه كلما يقترحه عليهم وان يغري
زيداً بعمرو ويغري عمراً على زيد ويتربص بهما
الرزايا والبلايا فيرزأ من كل منهما واقبح من ذلك
ان يتعرض لغيره اذا عرف انه ينال رزقاً فيسعى
في قطع رزقه وان لم يعد عليه ذلك بفائدة فنفع نفسه
هنا غير حقيقي وانما هو باعتبار ضر غيره وهو مثل
ابليس لا محالة لان ابليس لا نفع له من وقوع البشر
في المهالك والموبقات الا الشماتة بهم او مثل الجعل
الذي يرتاح لحمل الاقذار وينفر من رائحة الطيب
ومن العيب كل العيب ان يظل العالم مترقباً زلة غيره
ومتربصاً لحلول الشر بهم ولا لذة له من ذلك ولا

نفع سوى مجرد وقوع الضرر بمن يكرهه فاذا اردت
ان تختبر جليسك لتعرف من اي صنف هو من
هذه الاصناف الثلثة فاذكر له نعمة انسان وفضله وعلمه
فان رأيته قد فرح بذكرها وتمنى بقاءها عليه فهو من
الصنف الاول وان رأيته قد سكت او نسب ذلك الى
بطر الزمان وعوارض السعد فهو من الصنف الثاني وان
رأيته قد امتعض فهو من من الثالث وهو الذي لا يجب
خير احد وهو الذي عليه فيه كالقرط في اذن السمور
او كالنعومة في بطن الثعبان وهو الذي يجب الاحتراز
منه كما يحترز من الجاهل بل اكثر لان كلام الجاهل لا
يؤثر في احد وانما التاثير لكلام العالم الا ان الحق عصمة
كل معتصم به وفضل الخير جنة كل من تحصن به فاذ

واظبت على حب الحق وفعل الخير فلا تخش شر احد من الناس وما عليك اذا تجنى الناس عليك وانت بريء عند الله فعليه وحده عوّل وبه اعتصم واليه النجيء ومنه استهد والله يهدي من يشاء

***

من الناس من يكدح لمعاشه كانه لا يموت ابداً فتراه دائماً مهتماً بالاحتراف والاصطراف والاجتراح والاقتراح والاكتساب والاختلاب والاهتبال والاجتداء والاعتداء والاستكثار والامتياز والاستئثار والادخار وما يبالي ان فقد صاحباً بتحصيل درهم او غنم من حيث مغنم او ان انشب مخلبه في غير منشب لو ان بادهته الناس باللوم والسب فان حب المال اذا استولى

على قلب المحتال خيل له السراب شرابا والوشل عبابا
فاذا اعتاد كسبا من جهة اتخذ تلك الجهة قبلة له وناط
بها امله ومعوله واذا استفاد من احد فائدة ظنها قد
صارت عليه فرضا مكتوبا واداء محسوبا لا يبرح من
باله ولا يشغله عنه حال من احواله فاذا خاب يوما
امله ظن ان قد ادركه اجله فيهول و يشكو و يصيح
ويبكو ويقول يا للرجال اين المال واين الآمال واين
من كان يلقى السائل بالنوال فقد فسد الزمان واضاع
العرف والاحسان وقلت الاخوان لقد طالما اعطيت
ولم اسأل واليوم اسأل ولا اعطى وهيهات من بذل
وصان وجه الحر عن ان يبتذل هذه الارض واسعة
رحيبة والناس عليها اكثر من ان يحصوا عددا وما اجد

ممن يؤاسيني منهم احداً فمالي احرم وهم يرزقون وما
لي انفق وهم يتأنقون فبأي شيء فضلوني وعلام
خذلوني وابسلوني فنخيل اليه وساوس طمعه انهم جميعاً
اعداء له الداء وانهم جديرون بالازدراء حتى يكون هو
وارث الارض والمتصرف فيها وحده وحسبه اذا فقدوا
جميعاً دون ان يفقد فيها احداً فمثل هذا لا ينفع فيه
لوم ولا نصيحة ولا يثنيه عن الكسب فضيحة واذا
ذكرت له المنية اشتغل عنها بذكر الامنية واذا ذكر
بهادم اللذات اعرض عن الذكر بشرى ما هو آت
فيا للعجب كيف يشغل الانسان نفسه بالاماني الرديئة
ويستغرق في المطامع المستحيلة وهو يرى نكبات الزمان
وصروف الاحوال لا تبقي شيئاً على حال فكم احرمت

من فتى واقفرت من غني ووضعت ذا رفعة واجاعت
ذا رتبة وكم من رفيع سفل ونبيه خمل وذي امرة
في الناس صار مأمورا وذي خطر وشأن عاد رخيصا
حقيرا هكذا دأب الايام في الانام ترفع وتخفض بين
قعود وقيام وتعز وتذل بين يقظة ومنام من ذا الذي
دامت له السيادة وصفت له مشارب السعادة فاذا
كانت الدنيا منذ خلقها الخالق لم تصف لاحد في المناوب
والمشارق ولم يهنأ بها عيش فاجر ولا بر ولا حلت بها
ساعة الا وعبر بها دهر فكيف الاغترار بها والارتواء
بخلبها وهي تقول بلسان الحال الذي هو افصح من
لسان المقال اني اعامل بني جميعا على حد سوى وما
لدي من ثنيا فان كنتم تشكون من الظلم فها انا قد

عدلت بينكم وحكمت حينكم فكلكم مرتد يوم حينه
بضرب واحد وكلكم له حشرجة واحدة عند ذوق
حمامي الواحد فمن كان سكران من حبي فليستفق من
سكرته ومن كان قد اخذ الي فلينتبه من غرته وليتخلص
من غمرته لعمري ان حال الدنيا هذا مقالها وهذا اذارها
وتعذالها فما اسعد من العرب والعجم الا ويفهم معناها
ويفطن لفحواها ولذا قلت ان لسان الحال افصح من
لسان المقال ومنهم من هو مجبول على الزهد في الدنيا
لكنه غير زاهد في المسعى ولا متطلع الى ما في ايدي
الناس ولا يصرفه عن سعيه ظفر ولا يأس وانما يسعى
لوجه الله الكريم في الطريق المستقيم ويخلص ما يعمله
ويمحص ما يأتيه ويفعله فان انتفع به غيره فذاك ارب به

وغيره والا فانه يحتسب به عند الله اجراً و يزداد اليه
ارتياحاً وسراً وهو مع ذلك غير غافل عن ميعاد الحمام
الا ان الحمام لا يصرفه عن نفع الانام فلا يقول ان
لهم من يرزقهم و يكفلهم و يقوتهم و يشملهم فعلي
الاشتغال بنفسي وهذا ابداً طي وقنسي فانظر الى الفرق
ما بين هذين الرجلين وهما من طينة واحدة وانظر
الى تفاوت مآربهما المتعاندة لا جرم انه ليس من
فرق في شيء من الاشياء كالفرق في بني آدم فمنهم
من تسمو نفسه الى المعالي وطيب الشيم فيقرب من
الملائكة المقربين ومنهم من تسفل مروءته وتسقط همته
فيدنو من حد الشياطين ومنهم من بوحدة رأيه يعد
الوفاً عديدة من الناس ومنهم من لا لذة له الا في

اشقاهم وابقاهم في البأس ذلك حكم الله الذي تقصر عن ادراكه الحكماء وعن علمه المحيط تتقاصر العلماء وهو الذي خلق الداء والدواء وجعل من خلقه اسعاداً واشقاء فاسألك يا ذا الجلال ان تجعلني ممن يطلب الرزق الحلال ويؤثر السعي النافع على القيل والقال ولا تكلني الى الاماني الباطلة والمطامع الزائلة واقرن قصدي بالاصابة وعملي بالاثابة انك ولي الاجابة

***

من الناس من يتكل على حسب ابائه فيفتخر به لدى مجالسائه واخلائه في صباحه ومسائه فلا ينهض لمأثرة ولا يصبو الى مفخرة فشأنه ابداً ان يقول في كل مجال من القول ان ابي كان ذا فضل وطول وانه

كان يقرى الضيوف ويرضي الالوف وكان السائل
يأتيه فيرجع وهو غني عليم ويشور رأيه المستشير فيعود
وهو نطس حكيم وكان له ملكة التأليف وحزية في
كل عمل رصيف وكان مفناه مقصوداً ومحياه مشهوداً
ونواله قريباً ومقاله مصيباً وهو الذي انتهى اليه علم
الاوائل والاواخر وصار نبهاً في جميع المحامد والمفاخر
فما احد من الناس يجهل قدره وشأنه او ينكر عرفانه
واحسانه حتى صارت بحمده الركبان وشدا بمدحه كل
قاص ودان فلا تسألوني عن ذلك دليلاً ولا تطلبوا له
فيمن غبر وحضر مثيلاً فما من فاضل الا وكان بالنسبة
اليه مفضولاً وعلى هذا الانكال ينمي فخره ويشيد ذكره
فيصبح عاجزاً وكلا متقاعساً عن المكارم والعلى وما يهمه

ان ندب الى اغاثة محتاج واعانة ذي الفاج وايواء
طارق مضطر واجداء طاري، معتر وتراه ابدًا عند
ذكر الاموات ينتفخ ويتنفش حتى يتوصل الى ذكر
ابائه فينتفش واذا ذكرت له الاحياء قال الولد سر ابيه
ولا يلد النبيه الا النبيه ثم اذا قيل له هذا فقير كثرت
عياله فساءت حاله وقد طال ارقه وبدا خلقه بعد
ان كان يتأنق في ملبسه ويجرد على ملتمسه وهذا
قاصر استغربه ولم يبق له وجه مطلب فآل امره الى
التقشف والم به الضعف قال ما انا على الخلق بسيطر
وعسى اني على تشييد مجد آبائي مقتدر فقد قالوا ان
اشتقاق الابن من بنى بمعنى انه يبني ذكر ابيه ويديم
عليه الثناء وهكذا يصم اذنًا عن ذكر كل من طرق

اسمه سمعه ويقسو قلباً على كل من يقصد صحبته ويلتمس
نفعه ومنهم من يكون له ذلك الاتكال ويفتخر بما
كان لآبائه من شرف الفعال وكرم الخلال وصالح
الاعمال الا انه يدأب في الاقتداء بهم والسلوك على
مذهبهم وفي اتمام الامر الذي قصدوا والارتواء من
المورد الذي وردوا والتخلق باخلاقهم الكريمة والاستقراء
لمكارمهم القديمة حتى يزيد عليها ان كانت الزيادة
مما يطاق كانه واياهم في حلبة السباق وعلى هذا ترى
كثيراً من ابناء العلماء قد حاكوا اباهم ادباً وعلماً وفضلاً
وفهماً فهذا المصري هو الفخر والشرف الباقي على مدى
الدهر وهو الذي يجب ان تحث عليه البنون ويكون
اماماً يقتدي به المقتدون وينبه له الغافلون ويعتبر به

المعتبرون وهو اشرف من ميراث النضار والعقار وابقى
ذكرًا على مر الاعصار فان النضار يزول والنعمة تحول
ولو بقيا لاحد لمال بينه وبينهما الحرم فلا يتمتع بهما
الا بمثل ما يتمتع الحالم بالحلم والمتمني بالعدم اما العلم
فانه كنز لا يفنى على الانفاق ولا يخشى على ثروته
محمول املاق فهو قرين صاحبه قنسه الى ان يودع
في رمسه وهو في الشباب له جمال وفي المشيب كمال
يقوى عند وهن العمر ويزيد عند نقصان الخصب
واليسر ومنهم من يفتخر بنخسة اصل اجداده لكنه يفتخر
بجده واجتهاده وبعدته وعتاده وكسبه واعداده حتى
يحاول ان يستر بفضله ما بدا من عيب اصله فاذا
ذكر لاحد حسب قال لا حسب الا الادب ولا فخر

المرء الا بنفسه فلا تسأل عن نفسه وهذا القول هو
في نفس الامر صوابه وهو الذي يعتمد عليه كثير
من ذوي الآداب وهو راس مال الذين لا حسب لهم
وعليه يجعلون معولهم الا انه لا ينكر ان للاصول
تاثيراً في الفروع عظيماً فلا تكاد ترى ذا اصل زكي
الا وتتوسم فيه خلقاً وسيماً وشائاً كريماً فاذا اجتمع
الاصل والفعل واقترنا كان ذلك غاية المنى والا فان
هذا الثاني خير من الاول واكرم منه وافضل وبقي
الكلام فيمن لا حسب له ولا ادب يذكر مع ذلك
يفتخر في كل مطلب ويتيه على من شرق وعلى من
غرب ويملأ المكان من دعاويه ولا يبالي بلاحيه
فعنده قول انا جواب عن كل سؤال وتلخيص لكل

اشكال فهو الذي يجانب جانبه ويتعب به مصاحبه فلا
ينبغي ان تضاع في معاشرته ساعة ولا ان يكون مع
الجماعة فانبذ عنك كل من يكثر من قول انا وهو
يعزل عن الثنا ولا عائدة منه ولا غنا ولازم من يذكر
محاسنه غيره وينوه بخبره وخبره ومن يشيد بذكر
الاكياس ويزيل عما بدا في انحائهم من التباس فان
الطباع تعدي كما تعدي الادواء وان العمر قصير لا
ينبغي ان يضاع في سماع هذر وهراء واتباع اضلال
واغواء ولا تكن كمن ينفق زيته في الليالي سهراً على
ذكر الاعصر الخوالي فحسبك من آثار الزمن الحاضر
ما يلهيك عن ادكار الغابر الا ان تريد بذكر الماضي
عبرة تحض على اصطناع مبرة والاديب من استفاد علماً

والحكمة لمن كل ما يمر عليه ويذكر بين يديه ولا يشتغل الا بما يعنيه ولا يطلب ما يشقيه ويبديه والسلام على من اتبع هذه النصيحة وتوخى المقاصد الصحيحة وجد واجتهد فيما يخطط وسعى وقصد وكان من امره على رشد

***

من الناس من يتصدر في المجالس ويحادث كل مجالس ويناقش كل مؤانس فيضارب المسامع بما يورده ويمج القرائح بما يسرده ويملي الخواطر بما يسمعه من الحكايات والنوادر والابيات ويواصل الاخبار ويروي الاشعار ويتمثل بقضية بلطرى ويقول تلك سجية وهذه احرى والملتقط يستطرد ويتمثل ولا يتشدد ويلمح الى وقائع

وفنون وفيض في حديث ذي شجون حتى تقول
ان صدره مستودع لجميع الاخبار وفكره محور لكل
الاسرار وانه مورد المسائل ومصدرها ومخبر الفضائل
ومخبرها وانه فضاض المشكلات ومستفاض البيانات
وبديع البيان وحسان الفصاحة والتبيان وان له مصنفات
كثيرة ابدعها ومولفات وفيرة اخترعها حيث قالوا ان
اللسان ترجمان الجنان والاخذ في فنون الكلام منبأة
عن العرفان فيعظم في عينك قدره ويثبت لديك
فضله وفخره وتهابه مهابة التلميذ لاستاذه وتوقره توقير
المضيم لملاذه فاذا اخطأ في شيء خلت ان الخطأ من
فهمك لا منه وانك محتاج الى الاخذ عنه فاذا اخذ
القلم وكتب ابان عن قصور في علمه وفتور في فهمه

فغربت عنه تلك القريحة السيالة وخانته تلك الفكرة
الوصالة فلم يجد لارتباط الكلام بابا فكانه لم يقرا في
العلم كتاباً ولا درى من فنون القول ايجازاً ولا اطنابا
وكان لسانه الذي كان يتكلم به انما كان مستعاراً
وتلك الفصاحة كانت اضطراراً لا اختياراً مع ان من
العادة ان الانفراد للتاليف والانشاء يظهر فضل المرء
في علمه اكثر من المجالس ويكون ادعى الانشاء فان
في الخلوة يصفو الذهن من كدر القيل والقال وينشرح
الصدر من عنت الارتجال فيسهل فيها ايقاع الالفاظ
مواقعها والتاليف بين المعاني فلا يختار منها الا بدائعها
واذا التبس شيء من الكلام فالكتب تكشف عنه
اللثام فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير والزحام

ادعى الى البيان في التعبير وان كثيراً من يتفصحون
ويتحذلقون والناس بهم مخدقون واليهم متحلقون
ليتعمدوا حفظاً بعض القصص والحكايات لجرد سردها
على المجالسين بيقة على ما لهم من البيان والتبيين
والاطلاع على سير الاولين والاضطلاع من علوم
المتقدمين فتوعى احدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه
ووعاه ويزاحم غيره في الكلام لاظهار دعواه فاذا كان
في المجلس ثالثة منهم او اربعة سمعت لهم خبيباً ورمزة
حتى كأنك في حيش بجب وبحر مضطرب وصنهم من
يحضر المجالس وهو صامت ويسمع ما يقال فيها وهو
ناصت واذا عن له ان يورد نادرة على سبيل المحاضرة
تذكر انها غير خافية على احد من الحضور او انها

ليست من القول المأثور فيضرب عن ايرادها ويقيس
عليها غيرها من انداده وهكذا ينفض المجلس وهو لم
ينطق ببنت شفة ولا اظهر طي السكون اسفه فيظن
جليسه انه ذو عي وغيره من المكثرين كان اللوذعي فان
الناس يظنون غالباً ان الفخار في الاكثار والقصور في
الاقتصار فاذا حضر المجلس مرة اخرى لم يرفع له احد من
اهله قدراً واتخذوه كلا وقالوا ان سكوته انما كان جهلا وان
حضوره لما يقل فان من شهد محفلاً ولم يتكلم فيه
كان كانه يتطلب عد مساويه وحصر مساويه ولكن متى
خلا هذا الصامت بنفسه واجرى جواد قلمه طي ميدان
طرسه اراك من فنون الكلام عجباً واذاقك من حلاوة
البيان ضرباً وانشاك من انشائه وسلب لبك باساليبه

واخائه فتود لو كنت له تلميذاً وخديماً او سميراً وكليما
وقلت لا جرم ان من البيان لسحرا وان من الصمت
لسراً فليس كل من اورد النوادر كان عالماً ولا كل من
تمثل بالابيات كان ناظماً فما العلم الا ما استقر في البال
لا ما قرقر في المقال وهذا الذي يفيد الطالبين و يؤدب
المتأدبين وقلما اجتمع لمرء فصاحة اللسان و براعة اليراع
والناس في تفضيلهما ليسوا على اجماع وعندي ان
الثاني بالعلماء اليق والثاني بالخطباء وذوي المراتب اليق
فان هؤلاء يحتاجون الى اعجاب السامع بالقول الرائع
وان لم يتحروا في قولهم التحقيق مما لا بد منه للعالم
ذي التنويق وفي كلتا الملكتين مزية وفضيلة وقفيه
فاما من خلا عنهما ولم يحرز سهماً منهما فمادة الناس

ان يرموه بالمعايب و يشنوا عليه المثالب وما يكادون
يرونه جديراً بشيء من الاحسان لانهم حصروا الفضل
في فصاحة اللسان و براعة الجنان وهو عندي في اجلة
غير الصواب والقائل به انما يقول مجازفة بدون حساب
فان كثيراً ممن ليس لهم احد هذين الشأنين يحسنون
مباشرة الامور والتقلب في الرئاسة من دون شين فكم
من امي ساس البلاد وعمر البلاد وليس له في صناعتي
الكلام والتأليف يدان حتى كان لا انامل له ولا لسان
وانما هو نور يقذفه الله في قلبه فيرى به سليم الامور
وسقيمها ومنتجها وعقيمها والحري منها بالاجراء والنافع
منها عند الاستقراء فيشعر له عن ساعد الهمة و يوفقه
الله الى اصلاح امر الامة وانما يكون هذا في افراد

الناس نادراً ولذلك قلما ترى له منهم ذاكراً واحسن الملكات واجل الغريزيات ما نفع الناس ودفع عنهم الترهات وآلفهم على المودة والاخاء وازال من بينهم العداوة والبغضاء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ويمد بالتوفيق من اتاه بقلب سليم

***

من الناس من يتسنم اسنى المراتب وامسى المناصب فيحاول المطالب ويزاول المآرب ويحكم السياسة ويرأم الرئاسة ويراعي فيهما ارضاء الخالق والمخلوق وثناء الرازق والمرزوق ولا يلويه نسيم الصفاء وصفاء النسيم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم وعن امداء المبرات الى ذوي الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى

المهضوم حيث يعلم ان احب الناس الى الله انفعهم
لعباده واكيس الكيسى من عمل لمعاده وعلم ان الله لا
يضيع اجر المحسنين وان الدنيا لا تبقى لاحد من
الموسرين ولا من المسيطرين وان من ولي الامور
وجب عليه اسعاف الجمهور الحامل منهم والمشهور فمثله
مثل الربان الذى يدخر الزاد في سفينته ويحكم السكان
ولا يبحر الا على امان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان
فجيران احوال الانسان في معاشه تشبه السفر في
الابحار اذ هي محفوفة بالاخطار والاكدار فربما يكون
فيها رخي بال مغبوط الحال ذا اهل ومال واخوان
واخلال اذا بالزمان قد اضطرب عليه فاحاط به تيهوره
وهاج عليه معسوره والتفت به كوارثه وشملته حوادثه

حتى تكاد تنضب عنه مزاياه وتشين محاياه فيخيل للناس
ان تلك الرئاسة التي نالها والمعالي التي طالها انما كانت
عرضاً واتفاقاً وانها كانت عارية عنده لا خلاقاً وان
في وسع كل انسان ان يدركها مثله اذا ساعده الزمان
ولكن ينبغي ان تعلم انه لا يتأتى لاحد ولي الرئاسة
وان انتهت اليه الاداب والكياسة ان يرضي جميع
الناس ويستخلص مودتهم له من دون التباس فان
اغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة
واهواءهم كهبوب الرياح لا تستقر على اصطلاح فبعضهم
يرى ان الرئاسة تستلزم الملاينة والمياسرة وبعضهم
يرى انها لا تستتب الا بالمشادة والمعاسرة والمثرون منهم
يشيرون بالضن والاقتصاد والمعثرون يؤثرون الكرم

الجواد ولذا نرى المورخين لا يتفقون على اوصاف من
نبغ في ايامهم من اهل الامارة فلا تكاد تعثر من
اقوالهم عبارة وذلك لعدم اتفاق اهوائهم واتشتت
انحائهم وابعد الناس عن الرئاسة من كانت نفوسهم في
الدنيا زاهدة ومن نظروا الى الاشياء كلها بعين واحدة
ومن استهوتهم فلسفتهم الى التسوية بين الضار والنافع
والسار والفاجع وذلك يؤدي الى اهمال الاحكام واعزاز
اللئام اذ لا بد من ان يكون الرئيس ذا بوادر تخيف
اهل الكبائر وتردعهم عن التمادي في الشرور والمعايب
ولهذا كانت خطة كل من ولي الرئاسة صعبة متعبة
وحالته حالة من وقع بين اضداد متالبة واعداء متحزبة
فمرة يلزمه ان يكون متشدداً مستقصياً ومرة اخرى

يرى ان يكون هيناً ليناً مسترضياً وتارة يتحرى الامساك
والمنع واخرى الاجداء والنفع فاذا لزم لغيره راس واحد
لزم له رؤوس متعددة فلا يهنئه مع تراكم الاعمال
وتخالف الاحوال حظ ولا جده هذه حالة الرئيس
الذي يجتهد في ارضاء الله والعباد ويلزم الارق حتى
يذيق غيره لذة الرقاد ويواظب على اقامة الحقوق
وتبيين المحق من المحقوق والناس له حاسدون ولفضله
جاحدون وما يدرون ما يعاني من الجهد والعناء من
جد في كسب الحمد والثناء ولعمري ان من ظن اعباء
الرئاسة امراً يسيراً وخيلت اليه نفسه انه مع اخلاده
الى الراحة يكون اميراً فقد اخطأ الصواب واخطأه
الطلاب ومنهم من المناصب تسنمه والمراتب تقتحمه

وهو غير مترشح لها ولا مترقب وصلها فتجمع به الى
حيث تلتوي عليه الامور وتتجاذبه جواذب المحذور
من المقدور ويصاحبه من الصروف اعصاها ومن
الحوادث ادناها واقصاها فينبط غبيط عشواه ويركب
راسه في كل فيفاء تيهة بسهد طالعه وبعد مطالعه فان
ساعده الجد استمر في ولايته واستقر على غايته بجبار
وظالم ومحتال ومنتقم وغشوم وغشمر وتجبر وتكبر واكل
اموال الارامل والايتام وسلط اللئام على الكرام ولم
يراع عهداً ولا الاّ ولم يراقب ولياً ولا خلاً ونسي من
كان يألفهم في المنزل الخشن وركن الى الزمان ومن
صروف احواله امن هو دليل على ما للخالق عز وجل
من الاسرار الخفية والحكم المقضية لانه تعالى حين

يرى عباده قد آثروا الفساد وعدلوا عن محجة الرشاد
يسلط عليهم مقتدراً جباراً ومتحكماً قهاراً ليعتبر به
من اعتبر ويزدجر من ازدجر فلا تحسبن امهاله اهمالاً
ولا تنسبن الى تدبيره خللاً تعالى ثم تعالى ومنهم من
لا يرتاح الى نبوة ولا رئاسة ويرى انها توجع راسه
وتذهب نفاسه وتنغص ارغاسه فيختار ان يكون
محكوماً لا حاكماً ومظلوماً لا ظالماً بناء على انه حليف
الامانة والاستقامة رفيق الصدق والسلامة فما احد
يغشاه بظلامه او يلقاه بلامه فالخمول عنده خير من
النباهة والتعالي اذ السيل حرب للمكان العالي وليس سقوط
من كان على مرتبة كسقوط من كان على عتبة الا ان
الحق يقضي على امثال هذا ان كان في رئاسته نفع

للناس ودره للباس ان يسارع اليها ويحرص عليها فما
حسن ان يكون للانسان راس مال وهو يخفي منافعه
ويكتم صنائعه فان الاريب الكامل واللبيب العاقل
من توخى نفع سائر البشر بما خصه الباري تعالى به
من المزايا الغر لا من اجتزأ بنفع نفسه وعليها اقتصر
والله يهدي من يشاء

***

من الناس من يتعب في شبابه لراحته في مشيبه
لعله ان زمن المشيب يحول بينه وبين دؤوبه ونصبه
اذ يستحوذ الاعياء على رجليه والكلال على يديه
والكلول على عينيه والخمول على اصغريه والوهن على
جلده والافن على خلده والنسيان على ذكره والاشجان

على فكره فيرى اليسير اذ ذاك عسيرا والبشير نذيرا
ويخيل له الصفير زئيراً فتخونه مشاعره وتبسله خواطره
ويلازمه البلبال وسوء الظن في كل حال ضرورة ان
وهن القوى طليعة وهي الذهى فلا تكاد ترى ذا اعتلال
الا وفي عقله اختلال وما قالوه من ان الشيخ يستحكم
رأيه ويتسدد حزمه فيصيب ظنه ويقرطس سهمه فانما
هو مبني على سلامة البدن او ان شيخيته لا على مجرد
طول سنيه مع الضعف الذي يقانيه وهيهات في هذا
الزمان الذي يخفق فيه الطلب وترهق النوب وتتعاقب
المصائب وتتراكب النوائب ويخذل الجار وتبخس
الاحرار ويشط المجير ويسلو النصير ويكثر الشامت
ويعثر الماقت ان ندوم لمعمر صحته وتسلم له منحته ولهذا

ترى المتمرين في هذا الزمن قلما ينتفعون بتجاربهم او
يفضلون بها على مشاغبهم وهذه السلة اعني التعب في
الشباب لحصول الراحة في الهرم تكاد ان تكون من
خصوصيات الافرنج دون سائر الامم فهي عندهم اصل
الهم والالم ومنتهى النهم فتراهم يتغربون عن اوطانهم
ويبتعدون عن اخوانهم واخدانهم ويجدون ويلأبون
ويكدون وينصبون ويقتحمون الاخطار ويتجربون
الاكدار ويسهرون الليالي في الاختراع والاستنباط
ويطلبون المعالي بمبالغة وافراط حتى يترفهوا في آخر
حياتهم ويطيب لهم الاجتماع باهلهم واحبابهم وذاتهم
ومنهم من لا يفكر في العواقب عند الشباب فلا يدخر
شيئاً مما اكتسبه من الطلاب فكل ما يكسبه في يومه

يخلقه ويقول ان الخلق تبارك وتعالى يكفله ويرزقه
فما ينبغي له ان يكون مدخراً شيئاً الى الغد اذ الغد
موهوم وليس على الموهوم من معتمد فذلك عندهم
دأب اولي الرشد وشأن من آثر ان يحمد حتى اذا
اعيا عن السعي وفاته الطلب فلا تمسك عنه ولا وعى
ورأى ان ربيع ايامه الذي غبر لم يترك لشتائها ملجأ
من النير وموقى من الكدر اخذ يتندم على ما فات
ويرمي الدهر بالاعنات ويتأسف على تهافته في الموبقات
وانصبابه الى الشهوات وهيهات هيهات فهل ندم على فائت
ينفع وهل في استرجاع الشباب مطمع وذلك في الغالب
خلتنا بل بالحري علتنا وبكل من هاتين الخطتين وردت
اشعار المتقدمين وتبين منها رشد الرشيد وافن الافين يعلم

ذلك من يفطن الى انحاء الكلام واختلاف مقاصد الانام
والرأي عندي الاول ولا يتم ذلك الا بثلاث خلال
الحزم والمواظبة وكتمان الحال ولا بد من شرط القصد
ومجانبة الشطط وهي حالة وسطى بين من افرط وفرط
اذ كل من الافراط والتفريط مذموم والكلف باحدهما
ملوم الا انه ينبغي ان تعلم ان حصول الراحة بعد التعب
كما تقدم انما يتسنى للذين يلون الاعمال العظيمة والمساعي
الجليلة من نحو التجارة والصيرفية والمعاملات البعيدة
الجزيلة اما اصحاب الحرف والصنائع فلا يزالون في
بوس فاجع ونصب واضم وتعب باخع وذل تابع ولهف
يتضاعف ووجل يتكاثف فانهم لا يزالون مشفقين من
البطالة وهي للمحترفين شر حالة ولا سيما اذا اقعدهم السقم

وارقهم الالم وكانوا ذوي عيال معولهم عليهم ومستندهم
اليهم فيكون همهم في هذه الحالة متضاعفاً وحزنهم
مترادفاً واذا نظرت الى هذه الطائفه من الناس
وتأملت في احوالهم تأمل منصف غير ناس للحقوق
البشرية ولا متناس راعك خطبهم ولاعك نحبهم وانسالك
شانك ما تراه من شانهم واذهلك عن فنك ما تشاهده
من افنانهم فانك اذا دخلت قصور الملوك والامراء
وذوي السعادة والاثراء واهل السيادة والوجاهة والنبالة
والنباهة ورايت ما فيها من التحف الباهرة والامتعة
الفاخره والحلي والجواهر والآنية والذخائر والفروش
المرفوعة والمتكآت الموضوعة والمحاريب والتماثيل والتصاوير
والتشاكيل والزينة والنقوش والبهجة والرقوش والتذهيب

والترصيع والتنضيد والتنويع وغير ذلك مما تتوق اليه
النفس ويشتهيه الطبع وتقر به العين ويطرب السمع
علمت ان ذلك كله من كد هؤلاء المثلين وان شقوتهم
في العيش انما هي لسعادة المترفهين الكسلين لا جرم
انه لولا كنب ايدي هؤلاء العملة المتواصل وشقهم
وشرتهم وشقاهم كثفنات البوازل لما نعمت المترفين
اناملٌ ولو مشي اولئك لما ركب هؤلاء ولولا ظلمهم
لما طاب لهؤلاء الطلاء ولهذا لا ينبغي ان تحتقر احداً
من يعملون بايديهم ويمتهنون انفسهم لصيانة وجوه
مصالحهم فان زينة الكون بهم وعمران الدنيا متوقف
على دأبهم فهم اولى بالاكرام ممن يصرفون اوقاتهم
في اللهو والمدام والقصف والاثام وسواء منهم من

يكسو الرأس بعمله او يكسو القدم ومن يطع سيفاً او مبراة قلم فهم جميعاً بمنزلة اعضاء متعددة في جسم واحد فليس لك ان تقول ان هذا العضو مستغنى عنه او انه من الزوائد ذلك صنع الله الذي خلق الناس فاحسن خلقهم وجعل من ابواب متفرقة رزقهم فما يعجز عنه واحد من خلقه يقدر عليه آخر وكلهم مشترك في العمل الى ان يحين الاجل

***

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى سكنه فيصف مروجه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتلاعه وتلاله وربوعه وديار ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودوحه واطياره وطيبه

هوائه ولذة مائه ويزعم ان فصوله كلها كالربيع معتدلاً
وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنا وان شهراً فيه
خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستقل من
خيره ومحتاج الى ميره ثم يزفر زفير الهائم الحيران
ويصرخ صراخ الولهان الا ان حب الوطن من الايمان
قد جربت السهولة والحزون وركبت الذلول والاصون
وطوفت في الامصار وجولت في الاقطار وضربت
في مناكب الارض مستقصياً واختبرت احوال من
عليها مستفتياً وسبرت اطوارهم واوطارهم وعلمت قوافيهم
واسرارهم فلم اجد عيشاً هنيئاً الا في بلادي ولم يرقني
شيء غير ما رأيته فيها من طاريٍ وعادي فنهضت
البلاد مثوى وطابت مقاماً ومأوى وانها الجديرة بان

تكون مقاماً للملوك وما خيابهم عنها الا من النوك فمن
اين يجدون لها مثيلاً ومن ذا الذي يبغي عنها حولاً
هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء فقال فيها فلان
ابياتاً وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في
جداولها ونواعيرها وبلابلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها
وصروحها وقصورها ومصانعها ودورها وظبائها ومراتعها
وزكائها ومواقعها وفي اريج افاقها وبهيج اشفاقها
ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها بل قد ذكرت ايضاً
في بعض الكتب المنزلة في عدة مواضع مفصلة فقيل
انها معدن الخير والكرم ومثوى الصالحين من الامم
ومنها كان مبدأ الصنائع والعلوم في كل معمول
ومعلوم فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان

لك عوناً وخدناً قال ويلي انه شر جار وهو على
البلاد عار وشنار فكيف بجاره الذي يليه عسى انه
ممن توالفه وتصافيه قال ويلي انه شر من اخيه
فكيف اهل المحارة طراً قال ويلي انهم كانوا كلهم
علي شراً ولم اجد منهم الا ضراً فكيف اهل البلد
اجمعين قال ويلي ما منهم امين ولا معين فما كانهم
خلقوا من ماء وطين قال ويلي اني قد اختبرتهم جميعاً
فلم اجد لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال
اغبياء ينقادون لمن يأسرهم من الاغنياء فانهم عبيد
الدرهم والدينار ولا يبالون الا بملء بطونهم ولو من
الحشار فكيف اهل المدن والامصار قال ويلي انهم
اولوا غبن وغش وتدبير واختبار ما تعامل منهم من احد

الا ويليك بالكمد والنكد والخسار لانهم لما كانوا
منقلبين في امور المعاش ومنهمكين في اتخاذ الاثاث
والرياش ظنوا ان سائر الناس هميع فما عليهم في
غبنهم من حرج فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن
صفت طويتهم وطاب منهم البال فتلك خلة قد اختصوا
بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل
قطر ونعم الشان قال ويلك ومن اين لهم الصفاء وقد
فطروا على الشراسة والجفاء فابتعدوا عن الآداب
فكادوا ان يخصموا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه
على خبزة يسد بها جوعه ويسلب صديقه في اكله
ويحرمه هجوعه هذه حالة سكان البلاد الحاضر منهم
والباد فلا تكثرن من السوءال ولا يخطرن ببالك غير

هذه الحال فان قلت له ولكن كيف اشتملت بلادكم
على تلك المحاسن واهلها على هذه المساوئ الشوائن
قال ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين فرثوها
وزرعوها وعمروها واصرعوها ثم فسد الزمان فجاءت
خلفاؤهم فاسدة لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة
ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن صالحاً قط
منذ خلق الانسان والتواريخ على ذلك شاهدة
ونصوصها عليه متسانده متعاضده ثم كيف فسدت
الناس وانت بقيت من بينهم صالحاً ترى كل من سواك
طالحاً ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك
خلقاً يشين فانما ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ
منهم حالاً

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مراً به الماء الزلالا

كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طعنك على جنسك الا مليم وان امرءاً يحسب جميع اهل بلاده دونه لجدير بان يشيعوا مفتونه و يذيعوا جنونه و يتعجبوا حمقه و يتنكبوا منظره فيا للعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه مع ذم قومه وجنسه وممن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كانت ذاته وصفاته محوراً للمقال ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان وهو لاهله شنآن و يذكر عيوبهم سكران وعن عيوب نفسه وسنان هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه محبتهم للاوطان وهي

حمية كاذبة ودعوى عائبة ومنهم من يغار على وطنه
ويجتهد في نفع سكنه واذا ذكر من قصور اهل
بلاده شيئاً فانما هو لتنبيههم لا لتشويههم ولحثهم على
الوصول الى الكمال لا للتنديد بهم لبعض الاجيال
ولكي يحملهم على عظائم المساعي لا لان يقوم بالنعي
على افعالهم مقام الناعب الناعي فتراه كلما سنحت فرصة
لنفعهم انتهزها او لبانة لخيرهم تنجزها فمثله كمثل المربي
الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن لحزن من يتعهده
ويفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله
في غبطته وسرحه ولا جرم ان العيش لا يطيب الا
اذا كان لكل واحد من رغده حظ ونصيب فاما اذا
اختص الانسان بنعمة ورأى غيره في كرب وغمة

ان يهنئه ورود مشربها والتمتع بها وقولنا الانسان
المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونيته فهو
يرى سعادة جاره داعية لبلوغ اوطاره وتشييد داره
لا من كان ذا عينين ولسان يطعن بلسانه طعن السنان
وينظر بعينيه مصايب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان
فقد عرفت ان بعض الناس يمدح ولا غيرة له
وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا لهو الاصلح الاقل
ان يطري نفسه ويزكيها ان انت بهذه التزكية الا
مذكيها وان ما خفي عليك من شينها اكثر مما ظهر
لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين تهان
فان كان قد استحوذ عليك الفضول لعلك رفع الفاعل
ونصب المفعول واستهوالك المغرور لمعرفتك بون جور

فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت ولا فهمت معنى
الا ما فهمت فيم تفتخر ومن الذي تحتقر ولم لا تعتبر
فتزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل نجساً ولست
ترى الا مفراحاً اشراً او جزعاً مبتئساً فاقرن الحياء
وليكن عرفانك بقدرك اول ما تعرفه من الاشياء ان
الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب

***

من الناس من يولد في الخدمة اي ينشأ وحوله
من يخف اليه بالخدمة ويكسبه كل ما يشتهيه من
مأكول ومشروب وملبوس ومركوب واذا نظر رأى
كل شيء انيق واذا استمع لم يستمع الا ما يليق فتقل
عينه من اماني النفس ومطامح الحدس ومجالسه الاكابر

فيطرب به خطابهم وتقصده الاماجد فتعجبه اذابهم فاذا
دام على هذه الحال جد في التفرد بحسن الخلال وكرم
الفعال والوصول الى الى درجة الكمال واذا زاد عزاً
واقبالاً زاد شأناً وجلالاً فلا يكون صلفاً مفراعاً ولا
شرساً متياحاً ولا لجاجاً بذكرها لديه ولا نفوراً بما حصل
عليه ووصل اليه حتى يستوي عنده الكثير والقليل
والحقير والجليل وهي الحالة المستفادة من التفلسف
الحافظة على التقنع والتعفف فاذا حط الدهر مرتبته
وخفض منزلته كما هو شأنه في دورته وتقلبه وثورته
وتقلبه صبر على الغير وشكر على القدر وتذكر انه احرز
من رغد العيش نصيباً وافراً فاذا غبر فرب غابر يعود
غابراً فاذا لم يعد اليه ما فقده اكتفى بما عنده من

المحامد وهي عند اللبيب خير جدده فهي التي لا يعتريها
تضمان ولا يتطرق اليها عدوان الزمان وهي ذخر للمستخر
وفخر للمفتخر فكلما خاض الناس في ذكر المآثر وعددوا
المناقب والمفاخر افتتحوا الذكر باسمه واطنبوا في مدح
يلثمه وتأسفوا على تقلص ظله من رفع الى خفض
وتغير حاله من وفر الى برض ورجوا له العود الى
شأنه الاول وتفاءلوا له بالخير بكل ما وقع وحصل
حتى كانهم مشاركون له في احواله او انهم من بعض
عياله ولا يخفى ان اقبال الناس على من دهاه الزمان
سلوان واي سلوان وان بقاء الحمد والثناء عليه تسلية
له عما شمله من المصائب وتطييب لنفسه بما اعضله
من النوائب اذ الانسان ما دام عائشاً بين الناس وله

بهم اتصال لن يستغني عن ايناسهم له ولو بالمقال وكثيراً ما تغني فوائد اللسان عن فرائد الجنان وقلائد العقيان فاما من لم يبال بما يقال فيه ولا يكترث لذم ذاميه ومدح مادحيه فعليه ان يعتزلهم ويعيش في قنن الجبال وحينئذٍ فما عليه من القيل والقال والا فانه يستهدف لالسنة هاتيه صارده باتره تصيب منه المقتل وتبلغ منه مبلغ البز ولقد رأينا كثيراً ممن ذهبت عنهم السعاده والسعد لم يذهب عنهم الفضل والمجد ولم يبرحوا قدوة للناس في افعالهم وكالمثل السائر في كلامهم وكمالهم والى هذا المعنى اشار الشاعر وهو قول حكيم ماهس

ان الامير هو الذي يغدو اميراً يوم عزله

ان زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

غير ان من كان في السيادة اصيلاً ليس كمن كان فيها دخيلاً
وانك اذا توسمت طلعته وتفرست في احواله لمحت
الرئاسة من خلال افعاله واقواله فتلك خلة توافقه
وصفة لا تفارقه ومنهم من يولد في البؤس والشقاء
وينشأ في الخمول والضعة والخفاء فان ساعده الدهر
على تبديل هذه الحالة بحالة هي فرق السفالة ودون
النبالة فاحرز من الدنيا بعض حطامها وجالس بعض
كرامها فرح وبطر وتاه واشر وظن انه ارفع الناس قدراً
واجلهم شأناً وذكراً فقال انا الذي تتودد اليه الامراء
وتهاب مقامه الكبراء فلو شئت لنفيت من البلد كل
من عاداني وحرمت الرزق كل من جافاني وانا منار
العلم ومداره ومرجع الفضل ومحاره ومعدن الفضائل

وعقدها ومصدر الاداب ومواردها وقبلة المعالي ومقصدها
قد ذاع صيتي كالمسك نشراً وتارج عبير مدحي فملأ
الارض قطراً قطراً وان كنت لم اصل بعد الى درجة
الوزراء فانما هو لسفة مني ثابي الا السراء فان
الوزارة تعب والامارة نصب او ليس ان الناس جميعاً
يقولون انك امامنا وانهم الامام ولا نطيق بعدك يوماً
من الايام لا جرم انهم لا يستغنون عني ولا يصبرون
الا مني وهذا شأني في كل بلد سكنته وقطر استوطنته
فمن ودعتهم فهم الخاسرون ومن صلت عليهم فهم
الظافرون واذا خلع عليه احد الكرماء جبه او فروا
جاب الناس وتاه عليهم زهواً فظن انه الكاسي وكل
الناس عراة وانه المنعم على من انعم عليه صولة

بلباسه وقراه اذ يزعم ان مجرد ذكره لانسان احسان
له وامتنان وان يجعل صنيعه وكتم دسيعه وما درى
ان الكفر خبيثة لنفس المنعم وانه اذا التهم طعام غيره
ثم يقل فيه الا انه شر ملتهم واجشع ملتقم واشنع من
تهم كذلك شأن من هو حديث النعمه ونقيذ البؤس
فانه يتيه على الجلوس و يبدهم من القول بما تشمئز
منه النفوس فلا تراه الا فخوراً متمدحاً وجسوراً
متجهماً وعقوراً موذياً وزنبوراً مدوياً لا يشكر منعماً
ولا يحمد مكرماً لاعتقاده ان اكرامه ضربة لازب
وقرض واجب فويلى على حديث النعمه القديم الهما
الفاسد الشمه الساقط المروءه والهمه الذي لا يرى
لاحد حرمة ولا ذمة واهون شيء عليه نقض العهود

وعدم الوفاء ونسيان المعروف وهجران الالوف وما ذلك الا لانه اختصهم بعد المحل ورطبهم بعد الذبول فيا حسرة على من يغتر بالدنيا الغرور ومن يراها في كل يوم بالاعتبار تتعدد وعلى الاغترار تجود ولو ساعدت لاحد لم تصل الينا ولو استقامت في سيرها لما طابت علينا فلا يركن اليها الا الغافلون ولا يحرص عليها الا الجاهلون .

***

من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد او صنعة واحدة فيقتصر عليها ويشتغل بها طول عمره فلا بد من ان يفوق بها على اقرانه ويصير بها علما مشهوراً حتى انه لو قصر فيها مسئلة او اغفل بها عن

وجه من الوجوه لوجد من يعتذر عنه و ينفي عن
قصوره فيجوز على الناس ما اخل به كما جاز عليهم
ما احكمه على حد سوى لانهم قد الفوا منه الاحسان
والاتقان وهذا على حد قولهم من عرف بالصدق
جاز كذبه ومنهم من ينتقص من كل علم تتفه ولا
يتمكن من شيء من الفنون فترى عنده مشاركة فيها
بحيث لا توهله للرئاسة ولا باس بكلا النوعين وانما
البأس في الاعجاب بهما والتوصل بهما الى الدعوى
والمطاولة فان من يقتصر على فن واحد اذا غلب عليه
العجب به اخذ في احتقار سائر العلوم فيرى انها
تفضول بالنسبة الى فنه وصاحب الفنون العدة متى
جالس احداً وعرف انه من المقتصرين على فن واحد

باغته في الفنون التي يجهلها يريد بذلك تفضيل نفسه عليه وبسبة الجهل والعجز الى جليسه وكثيراً ما تؤدي هذه الحالة المتجب بنفسه في انواع شتى من الفنون الى انه يتوق الى معرفة الصنائع ايضاً لانه يزعم ان تحصيله لمبادىء الصنائع اهون عليه من تحصيله لمبادىء الفنون فترى عنده آلات النجارة والحدادة والصياغة فاذا سأله زائره ماذا اردت بهذه الآلات قال اني اوتيت من كل شيء علماً ثم تتوق نفسه ايضاً الى شراء اشياء كثيرة من قبيل الاثاث والفرش فكلما زاره احد اخذ يصف له خاصيتها واحوالها ويبين المواضع التي صنعت فيه والرجال الذين اخترعوها حتى يقال انه خبير باحوالها فضلاً عن كونه قادر على

شراءها فاذا خرج من داره ولقي بعض معارفه افرد
له بالذكر مثلاً واحداً من تلك الامتعة واشار في
اطنابه بان يقول مثلاً قد ملكت بساطاً لم يملك نظيره
احد غيري ثم يلاقي اخر فيقول له ان في داري
حصنة لم تصنع الافرنج لها مثيلاً وهلم جراً الى ان
يعدد جميع ما عنده من البيات فان لم يجد في الطريق
من المارين قدر ما عنده منها قصد الناس في منازلهم
واتم عليهم ذكر البراق فاذا انتهى من الافتخار باثاثه رجع
الى الافتخار والتبجح بفنونه وخصاله في الناس واطراه
الناس عليه فيقول اني في اليوم الفلاني من الشهر
الفلاني اجبت عن مسألة في النحو وبعد هذا التاريخ
بشهر اجبت عن مسألة في الصرف وفي كذا من

شهر كذا زرت فلانا فجاءني بخوان الطعام على رأسه
وفي ليلة كذا زارني فلان مساء بفتة فقدمت بين
يديه عشرة الوان من الطعام فلما كان اليوم التالي
خرجت الى السوق واذا بالناس يضربون المثل بتلك
الالوان والاسماء يرتاحون الى لقائي ويهشون لقدومي
والحكام لا تفصل امراً دون مشاورتي والتجار يأتمنوني
على جميع اموالهم ويودّ احدهم لو اشترى منه شيئاً
ولو تسيئة وان اهل البلدة لا يستغنون عن وجودي
بينهم حتى انهم لما بلغهم ذات مرة اني مفارقهم
اقبلوا اليّ جميعاً وحكموني في اموالهم وذلك من
فضل ربي فانه حببني الى الناس اجمعين وجعل قلوبهم
في قبضة يدي وهو الذي يرزقني بغير حساب و يهديني

الى طريق الصواب فلم اعلم من نفسي انني ضللت يوماً
عن صحبة النجاح ولم ابت ليلة الا وانا موقن باليسر
والفرج عند الصباح وكل ما يسمعه من كلام الناس
في غير مدح نفسه فهو عنده سدى وكل ما يجده
مسطوراً في الكتب على غير هواه فهو باطل فاذا
كان المتمدح بنفسه على هذه الصفة مضطلعاً بجميع
العلوم والفنون وخبيراً بسائر الصنائع والحرف فهل
يطيق احد معاشرته وهل تغني عنه فنونه في اديب
الجالس شيئاً مع انهم شبهوا العالم بالغصن المثمر فكلما
زاد علماً زاد تواضعاً وانما يحرص على التمدح الجاهل
الذي لا يشعر بقصور نفسه وعيب كينته فتسول له
الغواية والضلال ان جميع مساوئه محاسن ومحاسن

غيره مساوٍ فيه واذا سمعته يمدح احداً على شيء فانما يكون المدح راجعاً الى نفسه لانه مبني على ان ذلك الممدوح قد اجله واكرمه او وصله ببعض دراهم فهذه صفة العالم المعجب بنفسه سواء كان علمه مقصوراً على فن واحد او فنون متعددة غير منه الجاهل المتواضع والفر المواضع والله يهدي من يشاء

***

انى كثيراً ما فكرت في فن البديع الذي هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات فاصبت هذه المرة ان الشيء مقالة برمتها من نوع الترصيع ومثاله في الكتاب العزيز (ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم) فها انا ادعو جميع من على

وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهي
من الناس من تخليج فكره من فنون الاقتراح
وتلجج صدره من شجون الاجتراح لواقح وتزعجه
المآرب الى اقصى المرامي وتزعجه المطالب الى اعصى
المرامي وتستفزه وتستهويه وتستبزه وتستنويه لكنه
يقتمع لها صبره . ويشرح صدره . ويجتنب منها بوارح
الغصص . ويرتقب لها سوانح الفرص . ويتحين انتجاعها
ويتبين انتفاعها . ويختبر مشروعها ويسبر موضوعها .
فلا يقدمها الا جذرا . ولا يانيها الا ظفرا . ويرى
ان الانتظار احسن معين على تحصيل الامل . والاضطرار
اعين قرين لتسهيل العمل . ورب عجل اهب الاجل
ولا يخلو ابتسار على انهيار . ولا تخلو اوطار مع اخطار

ولا يملو منار في منار . واذا دانت نيه او هانت
ثنيه . او صانت امنيه . لن غادر التبصر و بادر التهور
فضلال مطلباً ونال اربا . فانما يكون من قل النوادر ولا
يهوت لكل عناطر فاللبيب الحازم ما تأنى فيما تنى
والاريب العالم لا يتمنى الا لما به يتقنى اذ ليس الاستكثار
مظنة الرفاهة ولا الاستهتار مئنة للنباهة ومن تبصر في
العواقب وتدبر في النواثب ايقن ان الرزق قدر على
مقدار لا يتعداه والرفق عصر في مضمار لن يتخطاه
فلا وفور التردد يكوره ولا ندور التمهل يحوره ولا
ملازمة الارق تعجله ولا مداومة الشفق توجله ولا
شيء من الاشياء يفقده ولا حي من الاحياء يوجده
غير ان الرزق محدود كما ان الخلق موجود والخلق

معدود الا انه من الراتب المتبين اداؤه والواجب المتعين
قضاؤه على من اتصف بالسداد واعتكف على الرشاد
وكلف بالطلال وانف من الحرام وعزف عن البطال
ووزف الى السلام وصان وجهه عن الابتذال وزان
كتبه بالاعتدال ان يكد قاصداً ويجد راشداً كيلا يكون
كلا على غيره او عالا لميره فيقلى لقاؤه ويقلى هجاؤه
وتشمأ لهجته وتهذأ بهجته وتبدو عاهته مساويه
وتفدي مباهته مغاوي وحينئذٍ فما جناه من اثر عاد
عليه وبالاً وما شاء من وطرٍ فاد لديه نبالاً ومنهم
من اذا طلب بغية او خطب منية امهرها عرضاً
مباحاً واصدرها غرضاً متاحاً واعدها صدعاً لا تتمل
نفيه المساول واجدها نزعاً لا ترسل عليه المقاول بين

اقبال وادبار وابطال واسرار فحسكر وهس وثر
وبربر وثرثر وصرصر وقرقر همزة لمزة نبزة نغزة لمزة
تشبه حطمة نقبه ملمع ملعثف بجمع مجعثف لا يصيك
به كلام ولا يحيك فيه ملام ولا تقعده المقامع ولا
تردعه الزواجر وما من جانبه يحمله على الهيبة ولا من
ناحيه ينقله الى الخيبة فلا يزال يغدو ويروح ويندر
ويبوح ويشدو وينوح حتى يقتصر مأربه ويقتصر
مطلبه فهذا في عصرنا يعرف بالطول الماهر ويوصف
بالمزيل الظافر بل الاول الآخر اذ العمدة في حوز
ما قام بالنفس والعهدة في فوز ما حام على الحابس
كيفما كان من وسائل الانتجاع وهان من وصائل
الانتفاع ذلك دأب اولي الشجعم وطب ذوي الطمع

فلا يأتون من سوال ولا يصدفون عن مثال ولا
يحرفون عن مثال وما لهم بالمواقب من مبالاة ولا في
المناقب من مغالاة سواء صاروا من الامم او صاروا في
الذم او لبسوا الفضائح او قمسوا في القبائح حتى اذا
هنأهم الاثام وسأمهم المدام سخروا ممن نولهم بطرا
ونفروا عمن خولهم اشرا ونسبوا بذله الى الاضطرار
وحسبوا فضله من الاغترار وهو كفران مبين وخسران
مهين ومنهم من يقر على الكسل ويفر من العمل ويقول
ان الله جل سلطانه وعم احسانه خالق الاسباب ورازق
النصاب فهو يرزقني بغير حساب ويرمقني من ضير
الذهاب والاياب اذا لزمت مكاني فهو يغنيني وان
اقمت اتاني لا يعنيني فغدى ان ابتهل اليه داعيا وجدى

ان اتكل عليه راجياً فلا اجري ولا اسعى ولا اسري
ولا اشقى واذا كان قد تميز على اشكاله بوسم من العلم
وتميز على اشكاله بوسم من الفهم زاد في سرفه وزاد
في صلفه فصادرهم بموونه وناظرهم على معونته اعتماداً
على فضائله واستناداً الى شمائله وانه اكرم منهم وافضل
واعلم واشمل واحلم واكمل وهذه محنة اخرى ومهنة
خسرى بل فتنة كبرى لا جرم ان الله هو الخلاق
العليم والرزاق الكريم وانه قدر كل سبب فاحسن
تقديره ويسر كل طلب فاتقن تيسيره وانه يلهم خلقه
صنيع النعم وينعم رفقه على جميع الامم وان منهم
الحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم والقاصد والمقصود
والحامد والمحمود والجادي والمستجدي والهادي والمستهدي

الى الاليق بمن صفت سجيته ورفت مروءته وزكا اصله وزكا نيله ان لا يكون وكلا عاجزاً وفشلاً عاشر صناديداً من المعالي متشائماً بالليالي مترددا الى المانع والمانع متردداً في البارح والسانح اسير الوساوس حقير الهواجس اليف الظنون حليف الشجون قرين الاوهام خدين الاحلام فان ذلك من عوائق النجاح وعقائل الفلاح وان ذا الاحسان من هذا وهي ان ليس للانسان الا ما سعى

***

ومن عاشر الناس وقام فيهم مقاماً مشهوراً وحل منهم محلاً مذكوراً وجب عليه ان لا يقول الا الحق وان كان في ذلك المر الاشق فان الحق ثقيل

بالطبع على سلسله وقائله وراويه وناقله وما تكاد
تجد واحداً من الف من النامس يرتاح اليه او يسوغ
عليه فتف الفه اطلق منذ القديم التاهي بالاكاذيب
فلم يبق لهم من دونها خلاق من الصدق ولا نصيب
ومعلوم ان ما جاء مخالفاً للطبع تشمئز منه النفس وينبو
عنه السمع ولست اعني باصحاب هذا المقام المشهور
من قلب امور الجمهور من اصحاب السيادة والرئاسة
والحكومة والسياسة فان براعة هولاء انما هي في كتم
ما في ضميرهم واخفاء الظاهر من امورهم على ما
يقتضيه مخصبهم ويوجبه مآربهم وانما اعني الوعاظ
والخطباء والمؤلفين وكتاب صحف الانباء فهولاء
مكلفون من قبل الباري تعالى الذي فاض عليهم فضله

وتوالى بما اقامهم من الحكمة وفصل الخطاب واطلاعهم
الاطلاع على الحقائق من دون حجاب بان يبلغوا الناس
اجمعين كلام الحق المبين فان سمعوه فقد نالوا ارجهم
الى قصواه وان تولوا عنه فاجرهم على الله وعلى ما
قالوه وما كتبوه شاهدا لهم فواها على انهم ادوا الامانة
حق ادائها ولا غرابة في ان من اخلدوا الى الذات
وتشاغلوا بالترهات يعرضون عن سماع انذارهم ويقاومون
ما كشف على اوطارهم وانما الغرابة في ان ينكر كلامهم
من قام مقامهم ورام مرامهم وهو كشف نقاب الغواية
عن افهام الناس واطلاعهم على الحقائق من دون
التباس وقد كان ينبغي لهم ان يكونوا جميعا
كالحازفين بالات الطرب فانهم يتواطأون مع اختلاف

الآتهم على ضربه واحد ونفسة واحده و بذلك تمام
الارب فاذا رأى رئيسهم من احدهم خروجاً تبهه الى
المتابعة وارشده الى المواضعة والا سحكم عليه بالجهل او
العصيان واخرجه من زمرة ذوي الاذان ولكن من
عساه يكون رئيس هولاء الكتابيه الذين يهدون
الناس الى الصواب او زعيم اصحاب الخطاب الذين
يامرون باتباع ما يجب وينهون عن مجاوزة حد
الادب وكيف السبيل الى ابلاغ الحق وارضاء الخلق
ام هل يجب السكوت في مثل هذه الحال والاغضاء
عن فشو الضلال وهل يظن من فعل هذا وانفرد
عن الناس في قنة جبل انه يسلم من الضلال (جمع
عاذل) ولا يتقيض له من عين الجماد ما يكون له ضداً

من شر الاضداد وحينئذٍ فما احد يسمع شكواه ولا
يرثي لما دهاه مع انه لا بد في المحنة من بث الشكوى
ونشر الشكوى ولو لم يستعب ذلك سرعة اظهار التوجع
واشعار التفجع لوفور وكفى فلا بد للانسان من
صديق يشكو اليه وحميم يعتمد عليه ولهذا يحرص على
ان يكون له اهل وذرية واخوان فانهم في المحنة خير
سلوان ثم افكر واقول ان من كثرت اخدانه كثرت
اشجانه وان مخالطة الناس توجب البؤس والباس فان
الماء الصافي المورد متى كثرت عليه الوراد تكدر والثمرة
الناضجة متى لمستها الايدي الكثيرة قانأها المذر وقد
قالوا ان السلامة في الوحدة والمخالطة مفسدة للاصفاء
اي مفسدة ولقد طالما فكرت امر النساك والزهاد

والرهبان واعتقدته انهم اغبط نوع الانسان لانهم
قطعوا علائقهم من الدنيا وتركوا همومها التي اثقلته
والقنوة وعاشوا عيشة اهنأ وارضى فليس لهم هم في
المكاثرة والمنافسة والمفاخرة فكل ما اتاهم من رزق شكروا
عليه وما يأتيهم الا ما تجنح النفس اليه ثم افكر واقول
انه مهما اجتمع بثمران انفق شمران وانه لا يمكن
لاحد من هولاء ان يعيش منفرداً وحده او يلزم حالة
تجرده فيباشرهم اذاً نكدة وصفتهم صفة الحيوانات العابدة
وقد فاتهم الاجر العميم والثواب العظيم في ارشاد
الناس الى الصراط المستقيم وفي تهذيبهم المنهج من
القويم وتلك لذة لا يدريها الا من مارسها وغبطة
لا يقدرها الا من لابسها ثم اعود وافكر ان الخلق

اعداء للحق فلا يسمعون النصيحة ولا يقبلون من
النصيحة فلا فرق عندهم بين من ضرهم ونفعهم ورضيهم
ورفعهم وانما يحبون التملق الكاذب والاطراء على المعايب
وتحسين القبيح وتشويه الملبح واذا قلت لهم يا قوم
ما كان لكم ان تعترضوا في هذا الحديث وتبدلوا الطيب
بالخبيث فقد وردت به النواهي وقد خاض به الناس من
قبلكم فنهوا بالنواهي ولا تأتوا ذلك الامر فان موارده
وخيمة ومصادره غير سليمة قالوا اجئتنا اليوم لتجهلنا
من الجهالات فما نراك الا اذا هنالك قالت واحد ونحن
جماعة فاي سلطة للشيطان علينا واي استطاعة اغانت وسلك
على الهدى ونحن جميعاً سدى فان لم ترجع عن الفتن
لنبلونك بالحق ان هي الا بدعة وان انت الا جهة

فما ظنك بهذا الجواب ان تجري لقومه وجه الصواب
وظن انهم يشكرون له صنيعه ويحسبون نصيحته
صنيعه فيا ليت شعري اي الخطتين اولى واي المذلتين
من العدل اولى ايستزل الناس طراً ويعيش في البراري
والجبال حراً ويتخذ له من اهل الشنفرى اهلاً وينسى
ما وجب عليه من وظيفة الارشاد فرعاً واصلاً ام
يظل بين قومه هدفاً للملام وطبيباً لاسقام الافهام فما
احد منهم على سعي يشكره او على هفوة يعذره بيد
اني اعلم امراً واحداً واياه اتحرى عامداً وهو ان الله
لا يضيع اجر المحسنين وانه تعالى قال فاصدع بالحق
والراد في كل حين وانه قدماً مضى المرشدون بالتكذيب
ورموا بالمعيب لكن الباري تعالى قيض من برأهم ولو

بعد مماتهم واظهر صدق كلامهم وصالح اعمالهم ونياتهم
فاصبح الساعون يستنيرون بهديهم وسنتهم ويسلكون
على سننهم وامتلأت الصحف من اقوالهم واجتنت بحنين
افعالهم لا جرم ان من يغرس في ارض شجرة لا يترقب
ان يجني منها في الحال ثمرة وما جدير بمن قرأ ودرى
وقدر الامور وبرى ان يكف عن البلاغ اذا علم ان
ليس له عند سامعه مساغ فرب كلمة اثرت نعمة ورب
عجمة انقلبت منحة وذلك عاد ندمة فما ينلب الايام
الا من صبر وما يستوجب النعم الا من شكر وعلى
هذا وطنت نفسي واسكنت حدسي عالماً ان رضى
المتعنت صعب وان لزوم جانب الحق لا يضيره ثلب
فاما من آثر رضى المخلوق على رضى الخالق وظن ان

المتعاشق تتلمس الحقائق فانه لا يلبث ان يرمي به من
حالق فيقال له يومئذ لقد اوقعت نفسك وغيرك ايضاً
في الغرور وعميت عن القول المأثور فيها ان من حالك
على الضلال صار لك خصماً يرميك بالاضلال ويقول
انه تظاهرك بالهماماة عن زيد وعمرو لم يكن الا عن
غش وستر ومداهنة ومكر وان مدحك من لا يستحق
المدح لم يكن في الحقيقة سوى عين الذم والقدح
فابتدر لاصلاح ما افسدت واعتذر الى من اضللتهم
الى ما اردت فما عساه ان يجيب به ويدفع عن حسبه
الا ان يقول ان متاع الدنيا انساني حسابه الآخرة
وما هذه الحال من الاحوال النادرة فياويح من اضله
هواه عن اتباع الرشد وظن ان ان يقدر عليه احد

وقد رأى بعينه ما صارت اليه الفرقة من قبله وما
حاق بالضليل من سوء فعله وخطل قوله وخطأ رأيه
وخطر جهله ولكن كيف يدعى الاتباع المدبر عن
فطمس الله على قلبه وبصره فلم يبصر قصداً ولم يذكر
اميداً ولا حمداً ومن زعم المواربة اربا والرياء طلبا
فحسب قائل الحق ان يبقى كلامه لمن بعده حجة
ودليلاً ودستوراً يرجع اليه في ملمات الامور جليلاً
وجليلاً فيذكرون اسمه بالرحمة ويحسنون ذكره كانه لهم
للمكرمات سمة وحسب قائل الزور اذا كبا به جواده وافل
نعمده ان يقال له فضح الله حاله وما قاله وكفى الناس
اضلاله فهوذا قد جزي بعمله وخاب من امله

ومهما يكن عند امرء من خليقة

وان خالها تخفى على الناس تعلم

***

من تبصر الامور وتدبر المقدور وتقلب في حالات الدنيا وذاق حلوها البؤسى والنعمى وراقب الناس في معاملاتهم وتصرفهم وتفرقهم وتآلفهم ومقاصدهم ومساعيهم وظواهرهم وخوافيهم ونفعهم وضرهم وخيرهم وشرهم تاه عن الصواب وراء في الارتياب ومد على فهمه حجاب فانك ترى الانسان من وجه خلقاً شريفاً ونوعاً لطيفاً لا بل قيل انه اشرف المخلوقات واكمل المبروءات لكونه عاقلاً بصيراً سميعاً خبيراً قادراً على اعمال حواسه واعضائه وبها يدني كل ارب لحوبائه ويستخرج من السماوات والارضين ما خفي علمه وعز رومه ويسخر جميع الحيوانات

المآرب المختلفة ويصور اجناد على اشكال مختلفة مبتدعة
واذا شاء جعل البر بحراً والبحر براً والبر عبداً والعبد
حراً والبرد حراً والحر قراً والظلام نوراً والنور
مقهوراً والحزن مهلاً والسرور مقتلاً والوعر سهلاً مسلوكاً
والسفل ملكاً مملوكاً والسم دواء والسقم شفاء والزعاق
فراتاً والاورق مباتاً والبعيد دانياً والمريد حانياً وبالجملة
فان كل شيء في الوجود كانه لخدمته موجود وعلى
ارادته مرصود ومن جهة اخرى تراه عتلاً زنيماً شريراً
بليماً مريداً عنيداً حسوداً حقوداً شرساً شكساً خبيثاً
خلفساً قذراً مذراً ذعراً دغراً يفكر في السوء على
جار الخدين ويخاصمه على شفرة سكين فاذا تمكن
منها فخره بها فخراً وعاد وهو يجر عطفيه تيهاً وشمراً

وجه الله قد احرز بذلك ذكراً وتراه غير قانع
بالكفاف ولا راجع عن الطاف ولا مقلع عن هوى
ولا سالك طريقاً سوى ولا يزال ينكت في الارض
حتى يجد له سبباً للخصام وذريعة الانتقام فيقول لقد
شهد لي شاهد من الارض مقنع مسجل عادل معدل
على اني المحق وغيري المبطل فاني لي خلقت هذه
المرئيات ولي اختصصت فوائد المخلوقات فما كان لاحد
ان يشاركني في منافعها او يسابقني الى مطامعها فهذا
الانسان الذي هو مصدر التعدي ومورد التفنن بفعل
ما لا تفعله الضبع في وجارها اذ يريد ان يشتفه
الدنيا الى اصبارها ويبتلعها بجذافيرها ولا يرى لاخيه
معه شركة في قليلها فضلاً عن كثيرها وكثيراً ما

فكرت في هذا التمدن الباطل والخلو عنه عند الارائل
فوجدت انه صار سبباً للشرور والعدوان وشغل النفس
بالهموم والاشجان وباعثاً على الاسراف والتبذير والعداوة
والتوغير والحاسدة والمنافسة والمباغضة والمشاكسة وتحميل
النفس ما لا يطاق من النفقات والتعرض للهلكات
فصار من عنده غنى لا يقنع على حد من الغنى فكل
شيء تاقت نفسه اليه حام قلبه عليه وظل لسانه به
لاهجا وصدره به ملتهبا فلا يقر له قرار ولا يهدأ له
عرار حتى يناله وينصر عليه باله ثم يزهد فيه ويرغب
في حاجة اخرى يرى حوزها اولى واحرى فيزيد
بها ولوعاً ويسعى اليها سريعاً فيصبح وهو اسير الشهوات
كصريع اللبانات لا يصحو من النشى ولا يصبر من

التاجي ولا ينهض لمكرمة ولا يبالي بمذمة وصار من
دونه درجة يحرص على ان يكون مثله ويفضل فعله
فتراه يتهور في المهالك وينشب في المرابك ويرد المذمة
والمتالف ويتهافت على الخطر والتلف حتى يعد من
المثرين المكثرين ويحسب في جملة الموسرين اذ يرى
القناعة دون مقامه الاعلى ولا يتصف بها الا من
كان وغلاً تذللاً اما الغني فلا ريب في انه نعمة من
الله تعالى يحبب بكتسب حلالاً لا بالقمار والاحتكار
ولا بالخداعة والمصانعة ولا بالخيانة والجريمة ولا بالظلم
والعسف ولا بالخلس والخطف بل بالسعي والكد
والاجتهاد والجد فانه نعم العون على اعانة المعثر واغاثة المغتبط
وجبر الكسير وانعاش الفقير وعلى اداء المساعي الجليلة

واسداه الخيرات الجزيلة ولكن هيهات فانك لا تكاد ترى
غنياً الا وقد جمع في السرف وجنح الى التعالف فيرى
ان جميع الخلق دونه وانهم محتاجون منه الى المرتة والمرتة
فيترفع عنهم قدراً ويتيه عليهم كبراً وقد فاته ان
حاجته الى الفقير اشد من حاجة الفقير اليه وانه لو
ترك وغناه لما نقصه شيء مما بين يديه اذ لولا الحارث
والزارع لهلك جوعاً ولم تنج فائحة عليه ولولا الخياط
والتاجر لما لبس خزاً ولا ديباجاً ولولا الاسكاف لما
سلك منهاجاً ولولا الفعلة لما تبوأ داراً فجاء ولولا
فارس الكرم لما شرب الصهباء فما فضل الغني على الفقير
وما بون الكثير على اليسير والمرء يكفيه في الدنيا القوت
الزهيد والثوب الكسيد بل المقلوق اصح ابداناً من

المكثرين واطولهم اعماراً ولهم طاقة على تحمل المشاق
لا تبارى وبهائمهم الرقود اكثر مما بهنّ البطن الجليد
والرضيع المسهود كانما هو على فراشه زق منفوخ او
هو مسلوخ يتقلب يمنة ويسرة وينفخ عليه كاتن في
احشائه بجمرة حتى اذا اصبح دعا بالطبيب وخاف شر
ذلك اليوم المصيب فاقعدوه ومنعوه ودلكوه وسعطوه
ثم جاوزوه بماء الورد فنضحوه على جبينه ومسحوا عن
فمه ما سال من عرنينه ومناخر من ذفرته ودعوا له
بالسلامة والعافية واستبشروا بانه صار اتهم له كانت
شافية وعما سواها كافية واذا بالآسي وافاه وهو آس
اواه ومعه زجاجات شتى مذهبة متنوعة المياه من بين
اصفر فاقع واحمر ناصع واخضر ناضر وازرق زاهر

فسقاه من احداها واشمه من اشذاها حتى ايقن بزواله
الياس وزال عنه ما كان يقلقه من الوسواس اذ ظن
ان تقشع به الكاس و ينادر ثروته للناس واذا بالسراف
القبل ومعه صحف استأجرها من عند الصحاف ففتح
احداها وقرأ اسطراً من اصلاها وقال له ابشر بالسعد
والاقبال وغبطه الخال مع العمر الطويل والسؤدد
على كل جيل فما كان الله ليحرم هذا الكون من
وجودك وامثالي من كرمك وجودك واذا بالمطر بين
وافوه بالعزف والتلحين فاطربوه وسحبروه وهنأوه وبشروه
ثم قام ونظر وجهه في المرآة وقال انه بعينه ما علاه
شيء مما شان وشاه تلك ثمرة الغنى والايسار ولو عرا
ما عراني ذا اعصار لخلت منه الدار فويلي على الرجال

المتأثمين ودليل على هذا التمدن في بعض الأحايين فقد كاد يسقط الروءة والنخوة ويطوي العلم تحت الأرائك المنشورة فاصبح كل مشتغلاً بنفسه حتى قبل ان يسمعه في اذنيه ومن العجب ان هؤلاء المترفين مع اعتادهم ان سلامتهم سلامة الناس اجمعين وحرصهم على صحتهم حرص البخيل على الرقين لا يزالون في الاهتمام منهومين وعلى اللذات متهافتين وهو مجلبة الاسقام وداعية للآلام فهلا كانوا يقتصرون على الكفاف ويلزمون العفاف اذا كانوا حراصاً على سلامتهم وعلى تعميرهم وكرامتهم لا جرم انا رأينا من يؤمن بالآخرة يحرص على ان يبقى له بين الناس ذكر حسن ومأثرة وهذا الحرص هو عين الدليل على خلود النفس من دون لبس فاما من

كان همه في بطنه وعقله في صخته فليس له من هذا
الاعتقاد نصيب وهو في خسران وتبيب الا ان مثل
الدنيا مثل الماء الاجاج كلما شربه منه الانسان زاد
ظمأه او كالشجرة الشائكة كلما زاد فيها نوغلاً زادته
ارتباكاً وادماه فمن يرد ان يراها حق رويتها فليبعدها
عن عينه والا فتدخل فيها وتنبه بجنبه فطوبى لمن
تناءى عنها وتبرأ منها

***

من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احمق
الحمق ومن لم يعرفها بعد ان رأى تقلبها فهو اعمى
حمقاً الم ترَ ان فرداً من الناس قد خرب وحده
مملكة قديمة كانت ثابتة الاساس وجلب على اهلها وهم

ثمانية وثلثين مليوناً ذلة وانكساراً وهواناً بعد ان اهلك
من جيوشهم مئات الوف وعرضهم لبلاء غير مسبوق
ولا مألوف فاصبح العدو يتحكم فيهم تحكماً ويقترح
عليهم اشياء لم تخاس خاطراً ولا وهماً فيشكون وليس
من يسمع شكواهم ويلتفون وليس من يجيب دعواهم
وقد ارملت نساؤهم ويتمت اطفالهم وتعورت شيوخهم
وتعطلت اعمالهم وبارت اراضيهم وركدت صياصيهم
وثلمت معاقلهم وانتهكت حوائلهم ونضب ايمارهم وافل
اكثارهم وغلت ايديهم وشلت زناديهم وتقطعت منهم
الاكباد وتقطعت بهم اسباب السداد فكانهم لم يكونوا
امة متألفة ولا دولة ذات انفة وكأن مغانيهم لم تكن
معتداً للقصاد ومعالمهم لم تكن مورداً للارشاد فصار

من يراهم يكرمهم ويهجرهم ومن كان مشغولاً بنفسهم
يكفرهم ولا يشكرهم والدول تنظر اليهم نظر الشامت
وتتعلم قبح علومهم وكلهم عن نصرتهم قاعد ساكت
او في لومهم صامت وقد طالما هابوا ذلك الفرد الذي
همهم في خرابهم وتوصل الى تيتيمهم وكانوا يأتونه ناثرين
ويخرصون على ان يكونوا له عبيداً من بل الملوك ايضاً
كانت تتنافس في مصاحبته وتتهافت على مصادقته اذ
كان بيده الحل والربط والقبض والضبط بالعلم والحزم
والامن والرعب وكان اذا نادى احداً بكلمة عدها منه
نعمة وافتخر بها على الاقران واتخذها ذخراً لصروف
الزمان فلم يكن في زمنه من يعصى له امراً او يضمر
عليه شراً اذا كان يقال ان الله تعالى كان حارساً له

وساتراً زلله فكان اذا اخطأ في امر او قصر فيه قيل ان
السياسة كانت تقتضيه واذا اعتراه النقرس قالوا هذا المرض
قيل ان الارض اهتزت وشمل اهلها الارتعاش وكانت
سركاته وسكناته قسطاساً توزن به الاحوال واسطا لابا
يوخذ عليه تقويم المثال والمآل وهو الذي كبح
الصقالبة والروس فمنعت له منهم الروس واخاف اهل
الصين وانفذ في محافل الملوك رأيه الرصين وكان اذا
ركب كرم واذا مشى عظم واذا عطس سمت وباحسن
النعوت نعت واذا نظر شزراً ملأ القلوب ذعراً حتى
اذا اطلعته النعمة وظن انه وعدها امة وان القدر
يلبيه والسعد موقوف على شحرفيه فار رامه بالوساوس
وسولت اليه نفسه ان يلتهي حيناً بجز الروس الشراخص

اذ رأى بعض رؤس قومه صغيراً وبعضها كبيراً وبعضها
مستطيلاً وبعضها ممطولاً فنادى بجميع الجيوش وقال
اني ايجبني ثل العروش وحشد العجول الجيوش لذي
يضرب القرن ويشفي منه غليل الضغن ان لنا لضغائن
مخبأة في الصدور هي لذة الجسور وشفاء المصدور وان
قرننا ما وراء النهر وانا نقاتله ونقهره اي نقهر ثم
نرجع وفي صحبتنا العز والنصر والسعد والنخر فاذا
صبغناه ماء النهر بدمه كان ذلك عبرة في التواريخ
تسطر على مدى الاحقاب تذكر فمن كان منكم متحمساً
متوعداً او متهوساً مربداً فموعده غدا فاني ارمي
بطالتكم عاراً واخلادكم الى الراحة شناراً فان من شرط
من تقلد الحسام ان يكون ضارباً به على الدوام ولا

يذهله عن احد من الانام فهذا وقت الانتقام و كسب
الثناء من الخاص والعام انظروا اليّ والى ابي المترعرع
فكلنا بالحرب ولع والى النزال متترع فقالوا يعيش مولانا
المحارب انا معك ضارب وضاربه وانا بسعدك نقهر
المخاصم والمشاغب وان هو الا اسبوع ثم نعود الى
اوطاننا فائزين غانمين فتتسع لنا الربوع ويهنئنا الهجوع
ويصفو لنا الزروع فزحفوا متكتبين وبالسلاح متلببين
ومجالوا جولة واحدة وشدوا شدة جاهدة واذا بالعدو
انبث عليهم كالسيل الهامر وفاجأهم كالاسد الزائر اذ
كان قد استعد لهم حين كانوا يرقصون في المغاني
ويمرحون مع الغواني وكان اكثر منهم ضعفين فقابل
كل صف منهم بصفين قابلوا جهدهم وتذكروا رشدهم

فراوا ان الرجوع اول وان للعدو عليهم صولاً وطولاً
وبالله من رجوع قرن بالفشل وبخيبة الامل ويا لها
من غنيمة مكنت المعتصب لهم من بلادهم اي تمكين
فدخلها ونبوأها وشدد وطأته عليها مكانما عي عمت قلعه
حجرين وكان حصونها وقلاعها كانت مبنية من ماء وطين
فما تركك حصناً الا وفتحه ولا مدينة الا فضحه ثم صادرهم
بالاموال وكاثرهم بالسلاح والرجال حالاً بعد حال
اما اميرهم ذلك الخنفر فانه كان قد حصر في واقعة
منتة بالفشل والحذر فتقاعد فيها رشده وبطل جهده
فلم يسعه الا الاستسلام فأخذ اسيراً وصار اسره عبرة
للانام وتبعه من قومه الخذل والملام فقالوا انه هو
الذي اضلهم واوقعهم فيما اذ لهم فقتدوا بسببه اكثر

من ثمانمائة الف اسير صاغر ومن ستة الاف مدفع
ناسر ومن مئات الوف من البنادق والسيوف البواتر
ومما لا يحصى قدره من الهبات والذخائر ما عدا القتلى
والجرحى وما حرق من المدن والقرى بغيا وبرما حتى
قيل ان الصدر كان اذا احرق دارا قفل بابها على
ساكنيها حتى لا يستطيعوا فراراً فكم من النساء واطفال
هلكت في هذه الحال ولم يعلم احد بخبرهم ولم يشعر
باثرهم الا وكم من عزيز اذل ومصون اذيل ومستور
فضح وبريء منهم بالتنكيل وكم من مقدرات ابتذل
ماء وجوههن الناضرة وكم من دموع اسيلن كانما هي
امطار هامرة فيا من راى امة فخمة ذات ودولة ضخمة
اضمحلت وبلداناً عديدة صارت بلقعاً وكمائب فرسان

لاقت باجمعها من الحكام مصرعاً وجيوشاً جرارة عنت
بامرها خضعاً وكمت ولم يقل لها احد لما ماذا ترجي
بعد من الزمان وكيف تأمن من غوائل الحدثان وان
الدول الوضيعة الشان ان تستبد بامرها وتتمتع بحقوقها
التي ورثتها منذ ازمان فان الحقوق الآن قد نيطت بحد
الحسام لا بتعريف الكلام فما عسى ان يجدي الكتاب
عند انقضاض الكتائب او يهدي الخطاب عند اعتراض
المضارب فكيف تكون الحال اذا ضمت هذه الدول
كلها الى دولة او دولتين او ان يذهب بالجنسية التي
هي علة الضم بلامين وعند بعضهم ان الجنسية مبنية
على وحدة اللسان فاذا كان لقبائل شتى لسان واحد عدوا
جميعهم قبيلة واحدة ولم يقم على ذلك برهان فانا نرى لساناً

واحداً مستقلاً في مملكتين مستقلتين متغايرتين في الاحكام والسياسة منفصلتين وانما هو ان اليد الطولى هي التي تتناول المخترق قسراً وبطولاً وعلى ذلك دارت رحى تلك المملكة الثانية والامة الوانية الا ان الدهر غدار شيمته ارهاق الاخيار وايناق الاشرار ورفع الخسيس ووضع النفيس وانه كثيراً ما يدخل البريء في السجون ويخرج منه اللص المؤون ويجري السفيه على الحليم ويولع اللئيم بعرض الكريم الا ان ذلك من البراهين الساطعة والدلائل القاطعة على عقوبة المجرمين في الآخرة وعلى انه تعالى انما يمهل العبد ويستدرجه بحكمته الباهرة اذ يستحيل انه يسوي الابرار بالفجار وينزلهم منزلة واحدة في تلك الدار فيومئذ يجزى

المحسن باحسانه والمسيء بطغيانه فلا ينبغي ان تقيس
هذه الدار الفانية على تلك الدار الباقية ولا يغرنك
الاشرار باشرهم ويظنان ان الله غافل عن قدره فقد قدر
له مصرعاً وبيلاً وعذاباً طويلاً واذا تجري الامور
هذا لجري لتكون لنا عبرة وذكرى فطوبى لمن اعتبر
بما مضى واستسلم للقضاء.

***

اذا اعتبرنا اتقان الصنائع دليلاً على جودة العقل
وحسنة الذهن وصفو القريحة وسلامة الذوق واستقامة
الطبع كان لا بد لنا من ان نحكم بان الافرنج هم
اجود الناس عقلاً واحدهم ذهناً واصفاهم قريحة واسلمهم
ذوقاً وطبعاً لانا نراهم قد اتقنوا جميع الصنائع فلانه

علم المخاديك وسائر ما صلب من جواهر الارض واتقنوا
النجارة والنساجة والخياطة والصبغ والنقش والتصوير
والطبخ والبناء وكل ما يمكن للانسان ان يتعاطاه من
اسباب المعاش كالحراثة والزراعة والتجارة ونحوها فما
ترصدوا ايهيم على شيء الا واستخرجوا منه صنوفا
وضروبا حتى انهم ليبرزون النحاس في رونق الذهب
والتصدير في بهجة الفضة وان يكونوا قد تصرفوا في
بعض اشياء عمن تقدمهم من الامم او عاصرهم منها
مثال ذلك صنعة البناء فاني ارى ان الاولين قد
احرزوا قصب السبق فيها فلا يمكن للافرنج ان يجاوزهم
فيها وان بذلوا غاية اجتهادهم وطاقتهم اذ لا يمكن الان
لدولة من دول اوربا ان تبني شبه اهرام مصر غير

ان الافرنج يعتذرون عن هذا بقولهم ان ما يفعلونه
فانما يريدون به النفع لا مجرد الفخر والاقدمون انما
كانوا يفعلون للتفاخر اذ لم يظهر لهم في بناء الاهرام
نفع يساوي ما انفق عليها من الاموال وما تحمل فيها
من الانصاب والمشاق ويقولون ايضاً ان الملوك الاولين
كانوا يسخرون رعيتهم في عمل ما يريدونه ولا يبالون
بما يقاسونه في انفاذ امرهم وهذا لا يجوز عندنا الآن
ثم لا بد لنا من ان نستنتج من بناء الاهرام ونحوها
اشياء اخرى وهي ان بناءها لم يتم على هذه الصورة
البديعة بمجرد كثرة الذين كانوا يعملون فيها او بطول
الزمن او بعظم النفقات بل لا بد من ان نعلم ايضاً
انهم كانوا بارعين في الرسم والهندسة وجر الاثقال

واصطناع الآلات حتى امكن لهم اتقان العمل وبذلك
تحكم بزاعتهم على الافرنج في هذه الفنون ايضاً ومثال
ما قصرت فيه الافرنج عن الامم المعاصرة لهم صنع
الشيلان الكشميرية والزرابي العجيبة واشياء اخرى
كثيرة تصنع في الهند والصين مما يبهر الابصار ويحير
الافكار ويمكن ان يتحمل الافرنج ان يقال ان
البارئ عز وجل قد خص كل بلاد بمزية ما ففضلت
به غيرها من نحو الماء والهواء والتراب والعشب والحيوان
فبعض ما يصنع الان في الصين متوقف على التراب
وبعضه متوقف على الماء والهواء فلا يمكن ان يورث
بهذه الخصائص من بلادها الى بلاد اخرى ومن
الغريب هنا ان الافرنج يدعون بانهم اخترعوا

اشياء كثيرة وهي كانت معروفة عند اهل الصين
فهل يحسبها ذلك من توارد الخاطر على الخاطر ام نقول
انهم لما سمعوا بوجودها اخترعوها واستعملوها لانهم
وهي اجلة فان للافرنج فضلا عظيما في تجويد الصنائع
واتقان الالات وان يكونوا قد اخذوا بعضها عن اهل
الصين وبعضها عن العرب ولا سيما عرب الاندلس
واعظم ما اخترعوه استخراج منافع البخار الذي مكنهم
من اتخاذ البواخر وسكك الحديد وصنع آلات المطابع
والنسيج وغير ذلك وانما اعتبرنا العادات والكلام
والاخلاق دليلا على تلك المزايا التي تقدم ذكرها كان
لنا ان نقول ان الافرنج لم تزل تغلب عليهم حالة
التوحش والهمجية كالزمن الذي كانوا يلبسون فيه جلود

الحيوانات ويجولون في مناكب الارض بلا صنعة ولا
عمل اما العادات فانهم قد الفوا اكل الحيوانات القذرة
فكل ما صاغ منها في مزاردهم فهو طاهر والانكليز
يأكلون اللحم المنتن الذي تشم رائحته الخبيثة من مسافة
بعيدة ويتنافسون في اكل الجبن المدود فكلما كثر دوده
عندهم غلا ثمنه ولا يخفى ان عادة الانسان في طعامه
وشرابه هي اول علائم التمدن والتظرف وبلي ذلك
عاداته في لباسه ورقاده ومن قبح عاداتهم حلقهم شواربهم
وطالما فترى الشيخ الهرم منهم كالقرد تجرداً عن
الهيبة والوقار كتجرده عن الشعر وما كفاهم هذا حتى
شغفوا بالنساء اللاي لهن شوارب او عنانق او عوارض
تغالفوا الطبيعة في الحالتين ولو كانوا من ذوي اللحى

ورأوا غيرهم على هذا المرأى الشنيع لكان اول ما يصفونه
به ان يقولوا انه اقرب الى الوحش من الانسان
وهنالك عادات اخر كثيرة قد تلبسوا بها تلبساً ذميماً
مما لا يمكن استيفاؤه في هذا المحل لضيق المجال عنه
اذ ليس المراد هنا سوى ذكر الانموذج دون الاستقراء
والاستقصاء وكذا نقول في كلامهم واصطلاحهم في
التخاطب والتفاهم فان استقراءه ينبغي ان يكون في
سفر على حدته وانما نقول هنا قولاً مجملاً وهو ان
احدهم اذا اراد ان يعبر عن معنى وان يكن من
اوضح المعاني وابسطها واقربها رايته قد اشط فيه وربكه
وعقده بالاستطراد والحشو واللغو من الكلام حتى لا
تعود تعرف له راساً من ذنب ولا شرفاً من سرب وهم

ذلك فانهم يقولون انهم يعلمون في مدارسهم المعاني والبيان فاي معنى بالله لقولهم ما دامت هذه البلدة لم تفتح فانها لم تتمتع باي بيان فيه قولهم سقط فلان عن ظهر دابته فانفذ مضواً مكسوراً يعني فكسر عضو من اعضائه وغير ذلك من التعبير السخيف وهذا مبحث طويل ينبغي ان يفرد له تاليف مخصوص ليعلم منه فضل اللغة العربية على جميع لغاتهم وان ما يدعيه الافرنج من التمدن في جميع الاحوال المعاشية لا تقوم به حجة ومن الحسد فتح الانكليز معرضاً للمصنوعات في هذه الايام على حين يرون جيرانهم الفرنسيس قد منوا بحن ومصائب غلت ايديهم عن العمل ورمت براعتهم بالكساد مع ان من حقوق الجوار ان يفرح الانسان

لفرح بجاره ويحزن لحزنه فما معنى هذا المعرض في هذه الايام وذلك بتحاشاه العرب استرواحاً للجوار ومراعاة للولاء والاخاء غير ان الافرنج لا يفكرون الا في منافع انفسهم فقط فلو اهمهم تهذيب اخلاقهم قدر ما يهمهم ملء اكياسهم لكان اولى فسبحان من ارضى الناس بعقولهم

***

من اعجب العجب ان الانسان لا يدرك حقيقة حاله ومع ذلك يتطلع الى معرفة احوال غيره فيترك شغله وعمله ويأخذ في الاستقصاء عن حال زيد وعمرو اما كونه لا يدرك حقيقة حاله فقد يتوهم احياناً انه اشقى الناس اذ يرى نفسه مقيداً بجنسه ما او عمل ما ويرى بعض الناس مطلقي العنان يتقلبون من مكان

الى مكان ويصرفون اوقاتهم في اللعب واللهو والضحك
والبطالة فيود لو كان نظيرهم ولكن اذا سمع بان احداً
منهم هلك لانهماكه في الشهوات او لتحويله الليل
نهاراً والنهار ليلاً او لغلبة الهوى على عقله حتى ترك
طريق القصد والرشد واتبع طريق الزيغ والاسراف
رجع الى الحزم ورأى ان التقيد بالعمل خير من
البطالة بل حمد الله تعالى على انه ليس من تلك الزمرة
وقد يخطر بباله انه كان في الوقت الفلاني والمكان
الفلاني سعيداً مغبوطاً اكثر مما هو عليه حالة الذكر
ضرورة ان كل انسان يستطيب الماضي ثم يرى انه
كان في ذلك الزمن قاصر المعرفة لم يكن له علم باحوال
الناس وادارة الامور كما هو الان وعند ذلك يتذكر

ما كاده به زيد وعمرو في اوقات متعددة ويجعل الله
تعالى على سلامته منهما ودل ان ذلك الكيد قد زاد
في فهمه وفطنته بحيث انه اتخذه جنة للترقي من
امثاله فاغناه مزيد العقل عما حرمه من حظ ثالث
الايام فان العقل في الحقيقة كنز لصاحبه وما اضل
احداً من الناس يجهل قدره ولذلك ترى كل واحد
من الناس يدعي ان له منه النصيب الاكبر واذا كان
يقر بان غيره ازكى منه حالاً وانعم عيشاً واكثر نفقة
وافل هماً وعناء فلا يكاد يقر بان ذلك لكونه اوفر
منه عقلاً وانما ينسبه الى بعض الحوادث والموارض
فيقول ان القدر ساعد فلاناً ولم يساعدني او ان
الزمان قد فسد فلا يساعد فيه الا الكذاب والمحتال

ولربما يخطر بباله انه غير متمتع بالصحة التامة اذ لا
يقدر على اجتناء اللذات واتباع الشهوات كما يقدر غيره
ثم يرى انه يرزقه الطعام والشراب ثلاث مرات في
اليوم و يهنئه النوم ستة ساعات في الليل وانه قادر
على عمل يتكسب به معاشه ويطيب به عيشه وانه لو كان
مريضاً لكان ملازماً للفراش وهكذا يبقى فكره متردداً
في معرفة احواله فلا يتجه له وجه منها الا اذا قاسها
على احوال غيره وفي الواقع فان اهم شيء لمن اتجه
فكره في معرفة حاله ان يفكر في حال غيره على وجه
المطابقة فاذا كان وضيعاً وجب عليه ان يفكر في من
هو اوضع منه لا في من هو ارفع وان كان غير تام
السعاده يفكر في من هو محروم منها بالكلية على اني

اقول انه ما من احد يكون سليم العقل والبدن الا ويكون له حظ من السعاده عظيم وان كان غير تام الصحة يذكر في من اسقمته العلل واعلته الاسقام حتى اعجزته عن تحصيل معاشه وان كان مريضاً على هذه الحالة يذكر في من هلك فقد تقرر اذاً ان الانسان لا يعرف نفسه حق المعرفة وانما هي وساوس تعرض له فيخيل اليه مرة انه من السعداء ومرة من الاشقياء ومع ان كل واحد من الناس يقول بلسانه ما عليها مستريح اي على الارض فكل يحاول في قلبه ويتمنى في لبه ان يكون حاصلاً على الراحة التامة وهي في عرفه الاكثرين كناية عن كثره المال والاكثار من الخدم والحشم والخيل والديار والفرش والمتاع واحق

الحمق من ظن ان حظه ونعيمه ولذته في كثرة النساء
ولا يخطر بباله ان هذا الاكثار هو عين التعب لان
كلا من هذه الاشياء التي يلكها يقضي عليه بتوجيه
همه اليه وصرف فكره فيه ولا شك في ان كثرة
الهموم والافكار سبب للتعب لا للراحة وانما توجد
الراحة الحقيقية في القناعة وفي عزف النفس عن المطامع
البعيدة فتى عرف الانسان كفايته من حطام
الدنيا فقد استراح نعم ان الغني يقدر صاحبه على
اتخاذ ما يستطيبه من المأكول والمشروب ويستكرمه
من المركوب ويستنصه من الملبوس ويستعذبه من
البلاد وفي ذلك رفاهية له وتقوية لبدنه الا انك اذا
قسمت اعمار الفقراء باعمار الاغنياء وجدت ان الفقراء

يعمرون اطول من الاغنياء لان الغنى كما انه باعث
على الترفه والتنعم كذلك هو باعث على الاسراف
والانهماك في اللذات المقصرة للاعمار وكل من تعمل
المشقة واصابه منها خدر الشهوات فبشره بانه لا يلبث
ان يسأم حركته اصلاً اما من لزم القناعة واشتغل
بعمل ما ينفع به نفسه وقومه فهو في الحقيقة معيد
هذا الذي نديت اليه الكتب المنزلة وحثت عليه الحكماء
والفلاسفة من قديم الزمان وهو الذي رغب فيه كل
ذي عقل سليم وطبع مستقيم حتى الشعراء الذين لا
يتعاشون من التعرض للجوائز والتعريض بها يلهجون
بهذا ويمتدحونه ويحرضون عليه ومفاد ذلك كله ان
الانسان لا يدري ما ينفعه وما يضره وما يسعده وما

يشتبه وانما في اوهام تلوح له فيظن انها اذا تحققت
صار سعيداً ولو كشف الغطاء له عنها لما شغل بها بالله
ولا اضاع عليها سواه ومن هذا القبيل مثل الذين
يتعاطون تاليف الرسائل وانشاء الخطب ونظم القصائد
وهم بمعزل عن العلم فترى كلامهم يشف عن سخيف
المعاني ومستهجن الالفاظ وهم يحسبون انهم يحسنون
صنعاً فهلا عرضوا كلامهم من قبل ان ينشروه على
اهل العلم ليروا ما فيه من الخطأ والخلل فيرتدعوا به
عن ارتكاب مثله ام يظنون ان كل من قرأ شيئاً من
كتب النحو والعروض صار مؤلفاً وشاعراً وليس عليه
ان يعرف المأنوس من الالفاظ والصحيح من المعاني من
غير المأنوس والصحيح ام يخالفون ان كل ما يخطر

بالهم يعجب الناس او ان هذا الفن لم يضبط في قواعد
تعصمه عن الشين وتبعده عن الخلل فلو كان امثال
هولاء يعرفون احوالهم ويدرون حقيقة انسانيتهم لما
عرضوا انفسهم للهزء والسخرية فان غاية كل واحد
من الناس ان يكتسب المدح على ما يقوله ويفعله
ويدخر الثناء الجميل عليه ولو ان احداً حضر محفلاً
اوعرف انه متى تكلم سخر السامعون منه واحتقروه
فمساه كان يجسر على الكلام ام يرى السكوت اجمل
به فما الفرق بين المتكلم والكاتب فاري من ذلك كله
ان الحياة نفسها هي سكر الانسان يغطي الحقائق عن
بصره وبصيرته فيجهل حاله وقدره ويأخذ في ان
يخبط في الامور خبط عشواء واذا بقي الانسان بعد

بلوغه على هذه الحالة فما ظنك بالاولاد الذين لم يجربوا
الامور ولم يعرفوا النافع منها من الضار والصواب منها
من الخطأ ولهذا كان من الواجب على من انتدبوا
لتعليمهم وتربيتهم ان يعتنوا بكفهم عن الرذائل على
صغر وارشادهم الى ما ينفعهم في المستقبل بان يبينوا
لهم مساوئ الصبوه والشباب والكهولة والشيخوخة ومحاسنها
ومحامدها ومذامها وطوارئها وعوارضها ولا سيما فيما يتعلق
بصحتهم ويلزم عليهم عافيتهم على انا نرى المعلمين
يلزمون الاولاد ان يعرفوا قدر ما في الارض من
الجبال والاكام والاطام والانهار والعيون والجداول
والبطاح والسهول المحروثة والبقاع الممطلة وغير ذلك
ولا يعلمونهم شيئاً يؤول الى صحتهم كالنهي مثلاً عن

شرب الماء في التعب والتكشف الريح وكالاضطجاع
في مكان ندٍ والاكثار من اكل الفاكهة وارتقاء الشجر
وعدم المبالاه بمواقب البرد والحر ونحو ذلك مما لا بد
منه وبودي لو ان بعض الاطباء يؤلف رسالة في
هذا الموضوع فتجبر الاولاد على تعلمها وحفظها كما
تجبر على تعلم كتب الجغرافيا وغاية الكلام انني ارى
اهمال تربية الاولاد اصلاً لاعظم الشرور والفساد اللازمة
للانسان حال حياته فينبغي بذل الغاية التامة في
حسن تربيتهم وتهذيبهم حين يكون بهم صلاحية واستعداد
لذلك والا فانهم متى ربوا على الفساد ومرنوا على
الطلاح فقراءة الكتب لا تجديهم نفعاً

***

تحت فلسفة التربية والادب

لسيد الكتاب على الاطلاق الشيخ احمد فارس الشدياق . وخدمة لانصار العلم والادب نتحفهم بما يأتي من الحكم المحكمة

❊ واجبات المرء نحو والديه والناس ❊

قال تعالى « وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً . ربكم اعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفوراً »

وقال في آية اخرى « ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من اناب الي ثم الي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون »

تلك آيات الكتاب الحكيم تنطق الوعظ لقوم يعقلون (اولئك الذين هداهم الله واولئك اولو الالباب) الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه واين من سمع ووعى وخاف عقاب يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؟ اين من اوقف نفسه امام مرآة تصور له فظاظة اعماله وتريه قبيح افعاله

فيتدارکها قبل وقوعه في مهاوي انتقادات المنتقدين او تصوب اليه سهام اللائمين ؟ اين من عرف الجميل والمعروف وقدر الاصحاب حق قدرها وعامل کلا بما يجب ان يعامل به ؟

يا لله ! النفت يميناً فلا اجد من خلا من النقائص وانتظر شمالا فلا اجد من صفا من الشوائب الادبية والاغراض الخفية اللهم الا نفر قليل يذهب اسمهم جفاء جانب هذه المصيبة المدلهمة . اهان الابناء اباءهم . وقتل الاخوان اخوانهم . وفقدت الامانة وزالت العفة وکثرت المفاسد . والله مطلع وشاهد . بينما المرء يسرح نظره في ملکوت الله ويراقب الخلق اذ يرى بينهم من يشق عصا الطاعة ويرکب مرکب الطيش والجنون وينزع

من قلبه الشفقة والحنان كما ينزع قميصاً من رأسه و يفعل سواه السبيل وهو لا يدري ان الطاعة واجبة لله والرسول واولي الامر كما قال تعالى « يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم)

فبالله عليك يا ابن ادم يا من خلقك الله كالجماد او كنت اقل ولم نجد احداً تلجأ اليه في نومة اظفارك الا ابا يدأب اناه الليل واطراف النهار مجداً في الحصول على معاشك ومعاش اسرتك . واما تخاف عليك من طوارىء الحر وتحميك من تأثير البرد وتكلأك عينها ليلاً ونهاراً وانت لا تدري . كيف تسول لك نفسك الخبيثة بعد طول تلك المدة التي تربيت فيها في حضنها وكفالة ابيك ان تطاول على احدهما او تقيم عيشتها

بنظرة لا تسوغ في ميدان الآداب . كيف ذلك وقد سمعت ان سيدنا موسى عليه السلام لما ارسله الله الى فرعون نصحه اليه بالادب والاحترام حافظاً حق التربية التي تربا معه .

كيف يسوغ لك ان تنطق ببنت شفة تسيء بها الآداب وتخدش الانسانية مع ان الله تعالى قال فلا تقل لها (أف) ام كيف تمد يدك الاثيمة في بعض الاحيان لها بالقتال أنسيت ام تتناسى . وعميت ام تتعامى . عجباً لشخص يعيش بين قوم يطعمونه الحرير والفشكار ويسقونه الصمادح ويكسونه بالخز الثمين كيف يقبل ان يخون تلك النعمة أو يكفر بها ؟ حقا ان الانسان لظلوم كفار ولقد قال عليه الصلاة والسلام « اتق

شر من أحسنت اليه » وان الامثال العامة تقول « ان تزرعه يقلمك » وليس بعجيب ذلك فان الانسان مع انه يتقلب في نعم الله تعالى فانه يكفر به في بعض الاحيان ويعصيه في البعض الآخر وذلك ناشيء من الرحمة التي يلقاها من ربه . كذلك مع والديه فانه يعصيهما متى وجد شفقتهما ترفرف عليه ويخرج عن حدود الادب ان لم يكن له واعظ من نفسه .

الانسان مع بقية الناس ينقسم ايضاً الى قسمين : انسان بمعنى الكلمة تشبع بمعنى الانسانية وتخلق بها فكان انساناً قلباً وقالباً وانسان يدعى بهذا الاسم علما على غير مسمى

أما الاول وقد برهن على ان آدم أفضل المخلوقات

وان أبناءه يحافظون على فضله فيتمسك بالفضيلة ويهرب
لما خلق له قال تعالى (وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون) وان من عبادة الله حسن معاملة الناس
قال الحكماء عامل الناس بما تحب ان يعاملوك به .

وأما الثاني من ابناء آدم فقد اكتسبه وصمة عار
اذ طرح الانسانية وراءه ظهريا واقتفى طريق الفساد
فبئس ما اقترفت يداه وبئس ما نزله من عقاب الله
في الاخرة .

عجبا لابن آدم ملأ الحرص قلبه واغراه الطمع
على ان يستسهل اللؤم في المعاملات والخبث مع الناس
لاغراض سافلة لا يستحق ان يصرف فيها عنايته التامة
بل لو قدر الانسان نفسه حق قدرها لعرف انه من

قوم خلقوا ليكونوا ارق من بقية الحيوانات وتميز بالنطق
ليكون نطقه بما يكسبه الفخار وكيف ينال الفخر شخص
تغذى بلبان العدوان واقتطفه من رياض اللؤم غصناً
استحصله في اذى الناس مثل هذا بين ابناء جنسه
كالطاعون يصيب قومه بالوزي ويلحق بهم العار .
كيف يقبل ابن آدم ان يهين ابناء جنسه مع ان الله
تعالى ارضاه عن الحيوانات المعجمة فقال (واتقوا الله
في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة ولا
تكونوا عليها شياطين) الم يرق في نظره ان ينزل ابناء
جنسه مع عظمة قدرهم الى منزلة الحيوان المعجم تالله
انه لمشوم

فهذا الذي ان عاش لا يعتنى به وان مات لا نحزن عليه اقاربه

عجباً لابن ادم كيف لا يقلد الحيوان القصيف
الفكر القليل التصور في محبته الغريزية لابناء جنسه
والتامه معهم ومعاملتهم بالرفق واللين . كيف لا يتشبه
بالنمل مثلاً فيساعد بقية افراد امته ام رأى انه ارق
من ذلك فتشبه بالقط أو الكلب حين يتشاجر مع آخر
من نوعه طمعاً في الحصول على قطعة لحم او خبز
لقوته ؟ ما هذا الا ضلال وغرور ولو تشبه بالكلب في
خصاله الحسنة لكان افضل مخلوق واحسن انسان وارق
ادمي فقد قال عليه الصلاة والسلام (ان في الكلب
خصالاً لو كانت في ابن آدم لدخل الجنة) فلو قلده
في حفظ الجميل او اشبهه في صفاء القلب وحسن النية
لاحبه ابناء جنسه في حياته واعزه التاريخ بعد مماته

واحسن الله اليه بعد بعثه وادخله جنات عدن التي
وعد المتقون ان هذا لهو الفوز العظيم عبد الوهاب
حسن

الامل

الامل بغية ما يرمي اليه كل انسان . هو ذلك
السراج الذي يهتدي اليه الكون في حركاتهم ومسكناتهم
هو مرمى الرامين ومجال العاملين . الامل حصن منيع
ومكان رفيع يشتاق الانسان لسكنته ويود ملازمته
فيواصل الليل بالنهار في الحصول عليه ويجد السير في
الوصول اليه

الحياة كلها آمال ولولاها لضاقت بنا المعيشة واشتد
بنا الحال . تلك حقيقة والحقيقة لا تحتاج الى برهان

خلق الله الانسان ليجد ويسير في سبيل الحياة وكل
يرمي الى غرض مخصوص وهو الامل فمنهم من يأمل
ان يكون تاجراً او زارعاً والبعض من يود ان يكون
مهندساً او حكيماً كما يؤخذ من قول الشاعر

كل له غرض يسعى ليدركه
والمرء يجهل ادراك المنى غرضاً

من هنا علم لنا ان الحياة آمال ولا نروم سوى
الحقائق فكم يطربني قول ذلك المجيد

اعلل النفس بالامال ارقبها
ما اضيق العيش لولا فسحة الامل

سل ذلك التاجر عن تجارته او العالم عن افكاره
بل ذلك الزارع الذي يكابد المشاق عن زراعته .

كان يواصل العمل . ولم يصبه اليأس والخمول . يخبرك
انه الامل مرماه . سل ذلك التلميذ الذي يصرف
الاوقات في تعلم العلوم والآداب ولم يشتغل اثناء الليل
واطرافه النهار . وهو لا يعرف للنوم لذة كأنه يقول
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى
جفني وكيف يزور من لم يعرف

لم يبحث في تلك المؤلفات الضخمة و يفحص
المجلدات العظيمة يخبرك ان الامل روحه وحياته .
سل ذلك الذي فكر في وجود السيارات والاثير الذي
اكتشف المنطادات وكيف وصلوا الى اختراعاتهم العجيبة
التي ادهشت العالم باسره يجيبوك انه الامل لا زيادة
ولا نقصان . كفى يا صاحبي فالحق احق ان يتبع

وتلك غريزة في الانسان والغريزة لا تبطلها المواعيد والاوهام ! . . اذا صح هذا كله دعنا نبحث في الامال من حيث تفضيل بعضها على البعض الاخر . لا يخفى عليك ايها القارئ الكريم كما ان الناس مختلفو المشارب والاهواء كذا الاخلاق والعادات . فكل الناس اتفق فيهم مثل ذلك كانت امالهم متعددة ولا يمكن اذا ان نفضل بعضها على الاخر اذا كانت الاغراض كلها شريفة والامال عالية . لكن اللوم كل اللوم على اولئك الجهلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما هم بمهتدين . ترى السارق يحقق الامال بالاغتناء من مال الغير فيسلب الاموال ويجرد الناس مما فاض به الله عليهم من نعمه وعطاياه . انظر الى

ذلك الفاسق العاصي عن سبيل الله تراه ينتهك المحرمات وينتهز الفرص في اقتناص ربات الحجال . أو الى رجل يأمل أن يتزوج امرأة غنية تصرف عليه ! او الى آخر يود الموت لغيره حتى يرثه ! هذه آمال دنيئة سودتها الفضيلة وطرحتها الصفة ظهريا . فهي الدنس والارجاس تلوث الفضائل وتدنس الاعراض

لا بد للانسان من آمال قد رسمتها مخيلته وصورتها أمامه في أحسن صورة يروق لها نظره ويشرح لها صدره . فالعاقل من يدأب للحصول على أعراضه متى كانت عالية شريفة ، ويجد ويقتحم المصاعب حتى يحصل على شيء وليس أسعد إذ ذاك من الحصول على المآرب فهي منتهى الآمال وجل المطالب ، وليس

أصعب على النفس من رؤية شخص كبير الآمال قد
غلب عليه اليأس وألزمه الرضوخ والاستسلام فالحياة
في الجد والعمل والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ،

لم ذلك ايها الشاب وامامك أفضل الشعراء في
اشد ضيقه وعسر حاله يئن تارة ويقول أخرى .

فلا صديق اليه مشتكي حزني ولا حبيب اليه منتهي جذلي
فاء اغترابي حتى حن راحلتي ورحلها وقفا المسالة الذبل
أريد بسطة كف أستعين بها على أداء حقوق للعلا قبلي

فهم ما حل به من البؤس والشقاء وشدة الفقر
والعناء فهو يأمل ان يخدم وطنه الخدمة الحقة . فبينما
نقرأ هذا نرى التلميذ ييأس لمجرد سقوطه في شهادة
أو فرقة من سنينه المدرسية فالبعض من يترك العلم

والمتعلمين والبعض الآخر من ينتحر أو يفتعل الخدمة بالحكومة وعلى هذا المنوال نسجت كثير من الافكار مما يبكي النفوس ويحرق الاكباد ! بالله لا تيأس ايها الاخ واعلم ان من يصافحك اليوم تلميذ مثلك لم يساعده الحظ في الحصول على الشهادة الثانوية هذا العام . وكان قد رسم آمالا لو تعلمها لرثيت لحاله الا تعلم ان الرجل لا يهمه سقوط أو نجاح اذا كان الغرض خدمة الاوطان وارتشاف العلم من مناهله العذبة واتساع الفكر والوجدان . ولعمري ماذا أرى ؟ أرى معلوماتي في ازدياد وتقدم فكلما كتبت موضوعاً جميلاً أو حللت مسألة صعبة ازددت فرحاً وسروراً فكيف أأسف اليوم على شيء لا مرد له وان تجد لسنة الله تبديلا . ألم

يكون الغرض من المدارس ان يخرج الانسان كاملا عالما يخدم وطنه وبلاده ؟ وهل انت لا تشعر بثقل هذه الكفاءة في نفسك وهل الحياة قاصرة على الحصول على اوراق اي شهادات لا قيمة لها عند العاقل الذي ذاق طعم العلوم والاداب ؟

اذا عشقت العلم فاعشقه لاجله وليس للاكتساب منه او التجارة فيه فعشق العلوم واجب وبعد ذلك يأتي المال من طريقه .

الحياة لا تعشق ابداً وانما يعشق العمل لواحقها وسعاداتها . فاعمل ايها الانسان وليكن املك السعادة في الدنيا والحياة كما قيل

اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا

واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا

ولله در شاعرنا القائل :

المرء يأمل ان يعيـ ـش وطول عيش ما يضره
تفنى بشاشته ويبـ ـقى بعد حلو العيش مره
وتخونه الايام حتـ ـى لا يرى عملا يسره
كم شامت بي ان هلكـ ـت وقائل لله دره

حمد توفيق علي

﴿ اليأس والامل ﴾

اليأس : ضاقت الدنيا علي بما رحبت وسئمت النفس الحياة وملت ، وما حياة ابن آدم الا شقاء وما نالك البر الا وأعقبه البلاء فتلك الدنيا الغالبة أغوتني

بوعودها الكاذبة ، تقنعت ببرقع الرياء وتزينت برهة بحلة السناء فلهوت يوما أو بعض يوم وسكرت بخمرة الزهو والوهم ، ثم ازعجني هزة لا تنبئ بخير فاذا الامس حر واليوم امس ، بلى فقد اسفرت الدنيا عن قناعها . فتظهرت امامي باجلى مظاهرها . واذا النعيم انمحاث احلام وذلك فعل الدهر الخؤون فتبا له ولغدراته . وتعسا للغرور بترهاته . فصرفه قلب وايادية برق خلب وابتسامه حرب وشرور واقباله ويل وشرور معلني كل خير وغادرني بين الهم والقهر فالنفس ضائقة والروح زاهقة والسبل عائرة والمسالك غائرة فلا الصديق ياخذ بيدي ولا الموت ينعم بفقدي

الا موت يباع فاشتريه من العيش الذي لا خير فيه

ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على اخيه

الامل :— رويدك ايها اليائس . تأمل الطرف حولك وانعم في الدور نظرك وخبرني بما غرك الزمان حتى هويت الى الذل والهوان . أبقبور السلف اغراك ام بمصائب الغير استهواك ؟ كلا وما بالزمان من عيب وعليك وحدك تبعة الذنب

تهيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

فبينا الدهر يفتر لك عن ثغر باسم اذا هو ينفث فيك سم الاراقم ولك من ذلك عظة واعتبار ولا يعتبر الا اولو الابصار . يئست لان الزمان صدعك فكشفت عاجلا للموت صدرك . وما صبرت صبر الكرام وصمدت لهجماته بعزم واقدام . وما الرجل الا همة وصبر . كما

ان الحياة حلو ومر . وان كان الدهر كزعمك كله
شرور . وحزب الديار والقصور . فما لي ارى الدنيا
عامرة . والخيرات لغيرك سائرة والقصور تتهادى
كالعرائس والصنائع تاتي بالبدع والنفائس . فانهض من
غفلتك ايها اليائس الصاغر واعلم ان الدهر لا ينقاد الا
لصابر . وما خلقك الله لليأس والكسل . وانما سواك
للاقدام والعمل . ولو يئس الكل لفنيت العباد وما
ذلك خلقهم الرحمن فانظر الي انا الامل . واهتد بنوري في
الزلل تكتسب شجاعة وصبراً ولعل الله يحدث بعد ذلك امراً

وعلل النفس بالآمال ترقبها
ما اضيق العيش لو لا فسحة الامل

(يائس انعشه الامل)

الوهم

الوهم داء عضال تفشى سيفي كثير من البلاد فأعياهم « ودعاهم بالشعب الموهوم » وتسلط عليهم فأضلهم وسلب منهم الحياة وجعلهم جنوداً تحركهم أرادته فكانوا عظة للمتبصرين

ان شعباً يحكمه الوهم لا يرجى منه نفع ويقيم في غياهب الغفلة وما اضعف العقل امام الوهم الكاذب فكم من فئة قليلة من أتباع الحقيقة غلبت فئة كثيرة من اتباع الوهم والناس ترى وتسمع ورعايا الوهم في نزع الموت ضربت عليهم الذلة والمسكنة وضلوا عن الهدي فانقلبوا من الخاسرين أعمالاً لهم في الدنيا خزي

وفي الآخرة عذاب أليم . الموهوم يلبس السم في
دسمه ليبرئه شهد الجبن والجهل . نصبت مدافع الغفلة
على تل الوهم واطلقت مقذوفاتها المكذوبة فدوى صوتها
في اذنه المتوهمين فأبغلوا كالأنعام وبثوا في صفوفهم
حتى انتهم نجدة الحقيقة فأبادت ذلك الجيش السخيف
وفر قائدهم البطل (الوهم) وقد أرخى عنانه ولم يتجبل

كنت مارًا يوم ٢٩ اغسطس سنة ١٩١٤ الساعة
الحادية عشر صباحًا فوجدت الناس سكارى وما هم
بسكارى ولكنهم حيارى مما اصاب عقولهم من الجنون
الذي جعلهم يركضون ويتجمهرون في جميع الطرق يصيحون
انا مظلومون وذهبت الى ساحة محمد علي فوجدت الاطفال
يتماوجون بين صفير وقهقهه وهرج ومرج فأتت ثلة

من البوليس فطاردتهم فهزموا شر هزيمة ولم تلبث حتى رأيت الأبواب فتحت والناس سائرون بهدو وسكينة كانه لم يحدث شيء قط فعلمت انها نوبة عصبية لم تطل اكثر من ساعة وانتهت هذه الرواية الهزلية وانفض المتفرجون وهم يلعنون المشلين فكبر ذلك على جرائدنا فملوها من المواد الكتابية فجردوا اصحابها الأقلام وملأوا اعمدة جرائدهم بما يملي عليهم الوهم من السفسطة والتمويه فراجت تجارتهم وكانوا من الكاسبين . وضحكوا على عقول البسطاء الذين يلتفون عادة حول هذه الاباطيل التي كانت نتيجتها ان تسرب الجهل على عظامهم فأنخرها والى أنفسهم فأغواها والى اعينهم فقذاها حتى غدى صبحها كليلاها .

﴿ الاختيال ﴾

الاختيال ضرب من ضروب الجنون والهوس يصادم العقل فيبيده و يقبض على زمام المختال فيظهره على مسأ من الناس ليفرجهم عليه فيهزئون به و يضحكون عليه (مجاناً)

لا يوجد في البيمرستان افسد عقلاً من المعجب بنفسه حينما يقوده الغرور فيمر على الارض وهو يكاد يحسقها بمشيته فيوهم نفسه انه اشبه بفلان الموظف.

الاختيال مرض عضال كثير الفتك بعقول كثيرين من اهل البطالة والكسل يعتني المختال بشاربيه متأنقاً في ملبسه يتبختر تبختر الطاووس عقله مغلوق الا للتأنق

لا يعرف ارجه الاعمال النافعة شديد الاعجاب بنفسه
مملوءا فرحا بما اوتيه ينظر الى حذائه تارة والى الوردة
التي في عروة (الباطلو) والى نظارته والى قوامه البان
وخده القتان ولحظه الوسنان يضرب في البلد يمنة ويسرة
ولسان حاله يقول (انظروا الى هذا المفتون وما حواه
من الجنون)

المختال كخلة من الجبل او قنبلة محشوة بالنباوة
اذا احتكت انفجرت ففرجت منها رائحة تصدع الذوق
السليم . المختال فيه آية الوعظة البالغة لقوم يعقلون ولو
نظر المختال الى نفسه نظرة رجل احكم عقله لرأى شيصا
خفيفا يخجله مرآه ان كان يجري في عروقه دم الحياء
وعنده اخلاق الكرام . المختال انسان منحط في الهيئة

الاجتماعية يرهم نفسه فيغشها ويغمسها موضع الاستلاء من الرجال ويثقل دورهم وتر الايام عليه والدهور وهو لاه في غفلته ولم يستيقظ من نومته قضى على نفسه ان يستدرجها الى الهلاك . من ذا الذي ينكر عليه جنونه وانحطاط نفسه وهو ضعيف الارادة عديم النشاط يرى امام الناس من نفسه زاعماً انه ليس هو بل هو فلان العظيم

اذا حادثت المختال تجد حديثه يدور حول نفسه انه ابن فلان الغني الوجيه ولولا معاكسة الظروف له لاصبح في اعلا علايين واحكم الحاكمين تصورات واوهام يوحيها اليه الوهم فيدسها في حديثه للناس ولم يتجول كم من الزمن يمر حتى تطهر الارض من هؤلاء المغرورين

يحدثك انه صديق الباشا وجليس الامير وصليل الجند
الاثيل وهو خالي الوفاض الا نسمة لقوم يكثر بينهم
مثل هذا الباطل فانه مثال سيء يسيء سمعة قومه
امام الامم الحية . ان المختال جبان فسد عقله وسما
عمله فتنه زخارف الحياة فكره نفسه واستبدلها بغيرها
وكره عمله فانكره ومن تكن هذه صفته فهو مقوت من
نفسه في السر والعلانية وهو اضر الاصحاب وجرثومة
الخمول فبئس الاختيال وبئس المختالون

علي الخطاب
الكتبي

﴿ الايام ﴾

الدنيا هي المدرسة الكبرى والكلية العظمى . والايام هي المعلمات المرشدات والناصحات الصالحات . والانسان هو الطالب المسكين المفتقر الى التعليم والتلقين . فاذا اعار لما تلقيه عليه الايام من المواعظ والعبر اذنا صاغية تجتمع وسعها قدره . واذا اهمل ما تلقنه له الايام من النصائح وما تعرضه عليه من الحوادث قرعته بعصا المقت ولكنه بيد الخذلان . ففي الاولى يكون مثال الشرف والكمال . وفي الثانية مثال العار والشنار . هنيئاً لمن وعظته الايام بتقلباتها فارعوى عن غيه وادرك اصلاح امره . وسعيدا

من نظر الى الايام واحوالها وفحص مكنوناتها ودقائقها
وجعل ما يحدث لغيره عبرة لنفسه

ابعد ان الانسان مهما ارتقى في العرفان لا يخلو
من الخطأ ولا يعصم من الزلل . ولكن هناك مساعدان
قويان يخففان عليه وطأة الملام وهما العقل والايام .
فالعقل يفكر . والايام تذكر . اذن ما عذر من وضع
نفسه موضع الامتحان . وترك لشهواته جماح العنان . وقد
جعل الله له عقلا يميز به بين الحق والباطل . والضار
والنافع . وضرب له الامثال بتقلبات الحدثان واراه بعينه
ما يحصل لغيره من السعد او الفقر . فهل له جواب غير
الخزيان او له مصير الا الخذلان ؟ واذا كان الانسان
لا يضع نفسه التي فضلها الله على جميع المخلوقات في

الموضع اللائق بها ولم يعرف قدرها ومنزلتها فكيف يعرف قدر غيره

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

اشتهر المسنون من الرجال والنساء باصالة الرأي واتساع الفكر وعظيم النصح وكبير التدبير . ما هذا الا لان الايام علمتهم والتجارب لقنتهم والدهر ادبهم والزمان حنكهم فاذا جئت رجلاً معمراً تجده يلقي عليك نصائح نادرة المثال ويخبرك عن مضار هذا ومنافع ذاك ويضرب لك الامثال ليستشهد بها عن حقيقة ما يقول او تراه اذا استشرته في امر يهديك بطول تجاربه الى ما يحسن عقباه

لم نرَ كبار السن لا يهتمون بالملاذ ولا يرغبون

في اللعب واللهو ولا ينظرون الى الحب والغرام الا بالعين التي ينظرون بها الى الشين القبيح . كانوا في غضون شبابهم مولعين بالمسرات مغرمين باللذات مشتبكين بحبائل الهيام . ما الذي جعلهم ينتقلون من حالة التطيش والغرور الى الرزانة والعقل والسكون ؟

نعم ان للايام عليهم فضلاً في ذلك وتأثيراً عظيماً فانها قد بينت لهم اسرار الامور وكشفت عنهم رداء الشباب واظهرت لهم حقائق الاحوال وتجلت لهم اسباب الانقلابات وأبرزت لهم نتائج الاعمال وأشرقت عليهم انوار الهداية ونشرت لهم مضمار الانهماك في اللذات بامثال جلية واضحة . وعبر ناصعة ساطعة

نحن نبكي كل ميت راحل كيف لا نبكي على يوم مضى

اليوم اذا ذهب لا يرجع واذا فارق لا يجمع وقد
يذهب ابناء الفرص بذهابه فانتهزوا الفرص اذا خفتم
الفصص فهذه نصيحة من اخ لاخيه فمن اتبعها تهدى
والسلام على من اتبع الهدى ٠ اسماعيل زكي

تم الكتاب

(خزانة الأدب)

المملوءة بجواهر الأدب

كتاب ديباج ايامه وابدع حسكانه اليازجي والبستاني

وتصاويرهم من علماء البلاغة وائمة الأدب

وبقي الكتاب شهرة جولة اقلام العلماء في صفحاته

وهو غني عن التقريظ

﴿ المرأة في نظر الشريعة الاسلامية ﴾

بحث وافر جليل في مركز المرأة الاسلامية في

الهيئة الاجتماعية لرسول البلاغة وحكيم الاسلام المرحوم

(الشيخ محمد عبده)